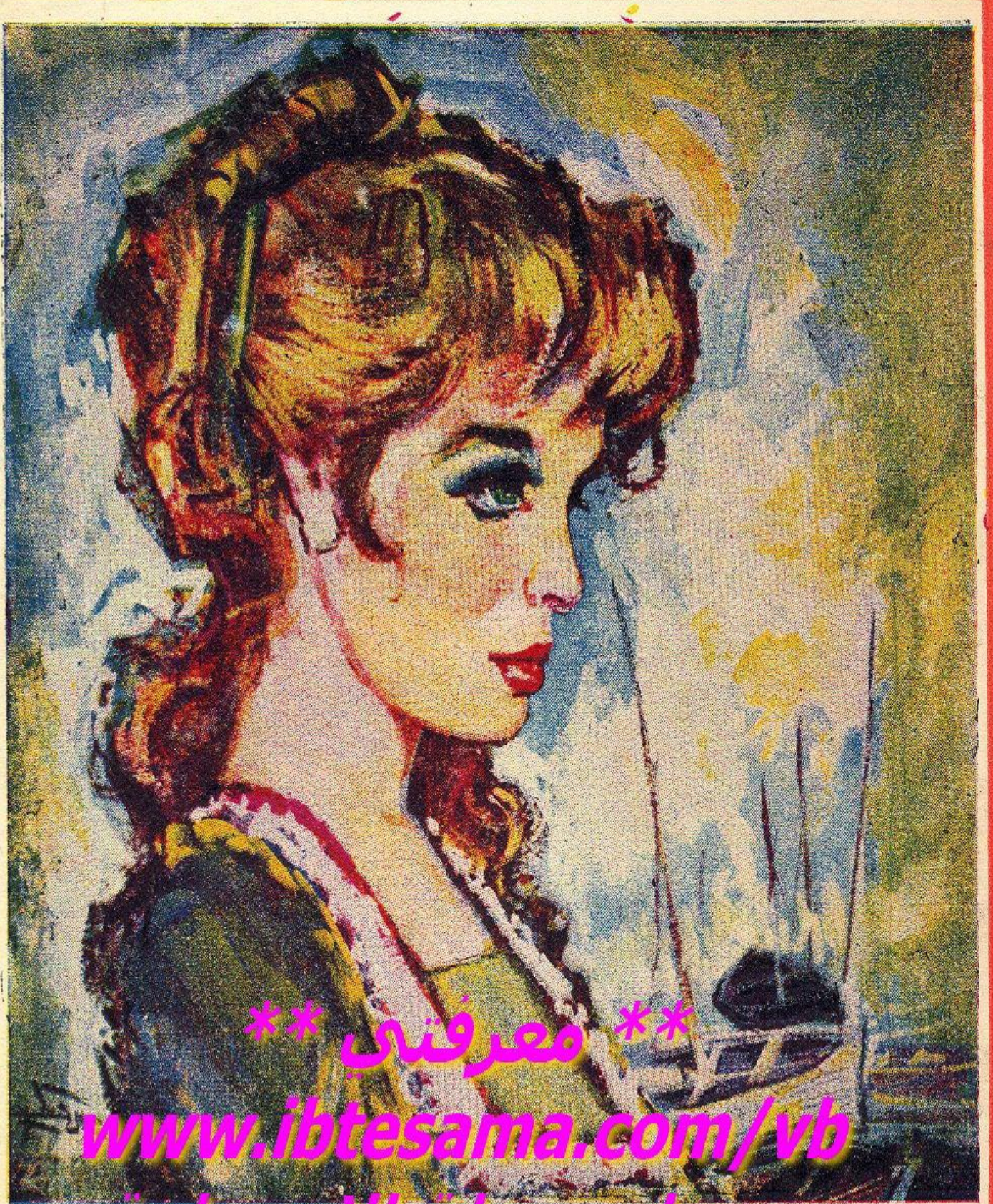


اميلك زولا

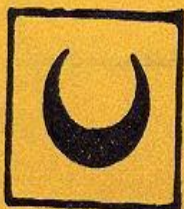
شهوة الحياة



** معرفتي **

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامه



روايات الهلاك

روائع القصص العالمة

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير طاهر الطنحامي

العدد ١٧٨ * أكتوبر ١٩٦٣ * جمادى الأولى ١٣٨٣

No. 178 — October 1963

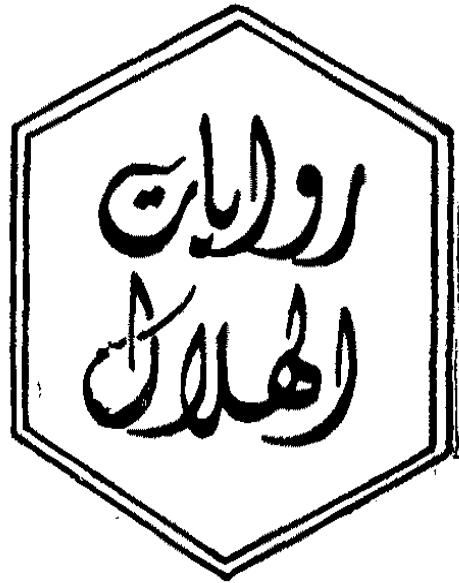
بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان
٨٠ مليما - عن الكميات المرسله بالطائرة : في سوريا
ولبنان ١٠٠ قرش سوري لبناني - في الاردن والعراق
١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في الجمهورية
العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا - في السودان ٨٥
قرشا سودانيا - في سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا
لبنانيا - في بلاد اتحاد البريد العربي ١١٠ قروش - في
لاهر كين ٥ دولارات - في سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا
والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال
في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية
- وفي الخارج بتحويل مصرفي على أحد بنوك القاهرة .
سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٣٢ أنه ،
ليبيا بنغازي ١٤ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر

١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العائلي

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شؤون الجماعة

بقلم

امير زولا

حقوق الطبع محفوظة لدار اهل البيت

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

مؤلف الرواية

ولد أميل زولا في باريس سنة ١٨٤٠ لأب مهندس ايطالى الأصل،
بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليل المال ، وولد بأنف أفتس ، وملامح
بعيدة عن الجمال .. ولسان ناقص لا يحسن نطق الزاى ، فكان
الصبيان فى المدرسة يتندرون عليه بسؤاله عن اسمه فيقول « ثولا »
وعندئذ يضجون بالضحك ! .. ويجرى هو خلفهم ليضربهم ،
فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات أبوه وهو طفل ، فاضطرت أمه الشجاعة أن تحترف غسل
الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراسة .. بيد
انه كان تلميذا متخلفا ، مشغوبا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته
بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الأدب الفرنسى بالذات ،
لأنه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية
من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما

ولم يكن هناك مناص من أن يهجر مقاعد الدرس ، لبحث عن عمل
.. فعطف عليه بعض ذوى المروءة وعينوه كاتب حسابات فى بعض
المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليل فى عد الأرقام
ليقبض مرتبا يقتات منه هو وأمه قوت الكفاف . بيد ان روحه الشاعرة
ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ، تاركا هذا العمل
البغيض الى ان قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات
الكبرى فعينه .. بائعا .. فكان ابلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس
النظر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ونقدا سريعا لها فى دفتر
مذكراته .. الى ان ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا انه وجد
فى تلك التعليقات براعة أدبية والمعية فرقاها محررا للاعلانات

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق الى معبوده : القلم .. ولو لكتابة

الاعلانات عن الكتب . ولكنها كتابة على كل حال ، وعن الكتب بالذات .. فأشرقت نفسه بالأمل ، وصار يخالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصيرة ، نشرها فيما بعد باسم « اقاويص الى نبتون » .. فكانت الخطوة الاولى نحو المجد السابع ، الذي تألقت فيه درره اللامعة : « الوحش الأدمى » و « البيت المتداعى » و « نانا » و « تريزا » و « صفحة حب »

وأميل زولا ، مشهور عنه انه لا يعرف في الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والأكل ! . فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق ، لينتقى الطيور بنفسه ، ويشتريها بعد ان يتأكد من انها سمينة ! ثم يهتم بالأصناف التي يجب ان تقدم له ، ويأكل منها بأفراط ! وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٠٢ ، أشعل مدفاته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل في تدبج المقالات والقصص .. فوجدوه في الصباح مختنقا بغاز المدفأة ! .. وقد احترقت جثته ، ورمادها موجود الآن في مقبرة العظماء بالحى اللاتينى بباريس



شخصيات الرواية

رب أسرة شانتو	المسيو شانتو Monsieur Chanteau
زوجة المسيو شانتو	مام شانتو Madame Chanteau
ابن العجوز شانتو	لازار Lazare
خادمة أسرة شانتو	فيرونিকা Veronique
ابنة عم لازار	بولين Pauline
صديقة أسرة شانتو	لويز Louise
طبيب أسرة شانتو	دكتور كازينوف Dr. Cazenove
رأى كنيسة بلدة بونفيل	الاب هورتيير Abbé Horteur



الفصل الأول

ليلة عاصفة

عندما دقت الساعة الكبيرة في غرفة المائدة ست دقات ، اختفى آخر شعاع من الامل في قلب « شانتو » .. ومن ثم راح ينهض - في الم - من المقعد الوثير الذي كان جالسا فيه يدفئ ساقيه المتورمتين بالنقرس أمام المصطفى المؤجج بفحم الكوك

كان في خلال الساعتين الاخيرتين يتوقع وصول زوجته مدام « شانتو » في أية لحظة بعد غيبة عن المنزل بلغت خمسة أسابيع . وكان المفروض أن تصحب في عودتها من باريس ابنة « أخيه » ، الصغيرة « بولين كوينو » التي عين هو - وزوجته - وصيين عليها عقب وفاة أبيها

ومضى متاقلا الى باب المطبخ ، فدفعه وقال للخادم « فيرونكا » :
- انه لامر عجيب .. أخشى أن يكون قد وقع لهما حادث في الطريق

وكانت الخادم امرأة في نحو الخامسة والثلاثين ، غليظة التقاطيع ، لها يدان كبيرتان كأيدي الرجال ، وكانت في تلك اللحظة مشغولة بشوى فخذه فوق النار كادت تحترق .. فلما سمعت حديث « شانتو » لم تدمدم كعادتها في ضيق واستياء ، ولكن شحوب وجهها كان ينم عن غضب مكبوت ..

وبعد برهة صمت ، قالت بصوت حاد :

- لاشك أن السيدة قررت أن تمضي هذه الليلة في باريس ، ولهذا

ليس هناك ما يدعو الى كل هذا القلق والحيرة

فقال « شانتو » بسرعة :

- لا .. لا .. لقد ذكرت في برقيتها أمس أن كل شئون الصغيرة « بولين » قد تمت تسويتها نهائيا .. ولاشك أن زوجتي بلغت مدينة « كان » في هذا الصباح . وهناك سوف تتأخر بضع ساعات ، ريثما تزور شريكنا « دافوا » .. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر ، قالت انها ستتقل القطار لكي تصل الى بايو في الثانية . وفي الساعة الثالثة ستحملها مركبة « مالفوار » الى أرومانش .. واذا افترضنا حدوث بعض التأخير هنا أو هناك ، فلا بد أن تكون قد وصلت مشارف البلدة في الرابعة أو الرابعة والنصف على الاكثر .. فان المسافة بين أرومانش وبونفيل لا تزيد على عشرة كيلومترات .. وكانت الخادم تصفى الى حديث سيدها ، وهى تومىء برأسها بين الحين والآخر ، دون أن ترفع عينيها عن فخذة الشواء .. أما هو ، فقد استطرد يقول بعد برهة من التردد :

- مارايك لو أنك ذهبت الى منعطف الطريق لتنظري ماذا حدث يا فيرونিকা ؟

فحملت في وجهه ، وقد ازدادت شحوبا من فرط غضبها المكبوت ، ثم قالت بحدة :

- ولماذا أفعل ذلك مادام السيد الصغير « لازار » قد ذهب يخوض في أحوال الطريق لاستقبالهما .. ان الامر لا يستحق أن اذهب أنا أيضا في مثل هذا الجو المطير فغمغم « شانتو » قائلا :

- أترين ؟ .. اننى بدأت أشعر بالقلق من أجل ابني « لازار » كذلك .. اننى لا ارى أى أثر له .. فماذا تراه يفعل بعد ان مضى على خروجه أكثر من ساعة ؟

وعندئذ تناولت « فيرونিকা » - دون أن تنطق بكلمة - « شالا » أسود من نسيج الصوف كان معلقا على مشجب ، وألقت به على رأسها وكتفيها ، ثم غادرت المطبخ في طريقها الى باب المنزل الخارجى .. الا أنها توقفت فجأة حين رأت سيدها يتبعها ، وقالت بحدة :

- عد للجلوس أمام المدفأة اذا أردت الا تملأ الدنيا غدا صياحا وتوجعا بسبب آلام ساقيك

وصفقت الباب وراءها .. ثم هتفت لنفسها وهى تمضى في الجو

- يا الهى .. اما لهذا العذاب من آخر ؟!

وجلس « شانتو » أمام المصطفى فى دعة وسكون .. وكان قد اعتاد على حدة لسان الخادم ونوبات غضبها .. وكانت قد التحقت بخدمته بعد زواجه بسنة واحدة ، أى عندما كانت فى الخامسة عشرة . وليس من شك أن عشرين سنة تعتبر مدة كافية لان يعتاد المرء على طباع أى شخص آخر ..

ولما غاب عن أذنيه وقع حدائها الثقيل ، نهض - كتلميذ مشاغب - واختلس الخطى الى الباب الزجاجى حيث راح يمد البصر من ورائه الى البحر .. وكان رجلا فى نحو السادسة والخمسين من عمره ، قصير الجسم ، بارز العينين ، مربد الوجه ، يعانى من نوبات مرض النقرس التى جعلته يبدو أكبر من سنه بكثير

وكان - وهو واقف وراء الباب الزجاجى - يفكر فى الصغيرة « بولين » ويتساءل عما اذا كان فى مقدورها أن تكتسب مودة « فيرونیکا » فى النهاية . وكان يشفق على الفتاة الصغيرة من ان تشعر باليتم والعزلة حين تأتى لتقييم تحت وصايته .. ولكن ماذا كان فى وسعه أن يفعل ؟ ..

لقد كتب له أحد المحامين فى باريس خطابا يخطر فيه بأن ابن عمه « كوينو » قد توفى بعد ستة أشهر من وفاة زوجته ، تاركا ابنته الوحيدة « بولين » بلا عائل يتولى أمرها . ورغم أن « شانتو » لم يكن قد رأى ابن عمه « كوينو » كثيرا فى السنوات الاخيرة ، إلا أنه كان يتبادل معه الرسائل التى تحمل المودة والتقدير بين الحين والآخر ..

وكانت أسرة « شانتو » - رغم كثرة أفرادها - متفرقة فى مختلف أنحاء فرنسا . وكان والد « شانتو » قد توفى تاركا تجارة الأخشاب لابنه الذى ظل يمارسها فى مدينة « كان » حتى تركها لشريك له ، واكتفى بايراد محدود ، وانتقل مع زوجته وابنه « لازار » الى بلدة بونفيل التى قال له الاطباء عنها انها - من ناحية الجو - أفضل من غيرها بالنسبة لصحته ولمرض النقرس الذى بدأ يهاجمه

أما ابن عمه « كوينو » فقد ورث عن أبيه متجرا كبيرا للحوم

والخضروات والبقالة في قلب سوق هالز الكبير بباريس . ولهذا
فان « بولين » لن تكون من الناحية المالية عبئا على « شانتو »
وزوجته ، لانها سوف ترث المتجر الكبير فضلا عن الاموال المودعة
في البنك

وتحمست مدام « شانتو » لقبول الوصاية على الصغيرة
« بولين » . . وأصرت على أن تمضي بمفردها - حتى تجنب زوجها
المشقة - الى باريس لتعود بالفتاة بعد أن تسوى جميع شئونها . .
ولكن . . لماذا تأخرتا عن الوصول في الموعد ؟ . . ان المخاوف
تستبد بالعجوز « شانتو » وهو ينظر الى الجو العاصف خارج الباب
الزجاجي ، والى البحر الهائج الذي كانت أمواجه تتسابق في الارتفاع
والاندفاع نحو الشاطئ الصخري ، ونحو الممرات التي تنحدر من
المرتفعات الصخرية - التي تقوم عليها منازل البلدة - الى الشاطئ
وكانت هذه العواصف تحدث عادة في شهر مارس ، فيقترب مد
البحر حثيثا من الشاطئ ، ويبدو من بعيد كأنه خط أبيض من
الزبد . . أما الشاطئ نفسه ، فكان يبدو عاريا ، الا من النباتات
البحرية العالقة بالصخور ، ومن الرمال التي تكسو سطحه ،
ومن الحفر السوداء المتناثرة فيه ، وقد خيل الى « شانتو » ان
الشاطئ بكل ما عليه يرتعد خوفا في انتظار البحر الزاحف نحوه
بكل عنف وقسوة . .

وقال « شانتو » لنفسه أخيرا :

- لعل الرياح قلبت المركبة في احدى الحفر المائية . .

وأحس بالرغبة في أن يغادر الغرفة أيضا ليرى ماذا حدث ،
ففتح الباب ، وخرج الى الشرفة الصغيرة المطلة على البلدة . . ورغم
المطر المتساقط عليه ، ورغم الرياح التي راحت تضرب وجهه
كالسياط ، فقد اعتمد بمرفقيه على حافة الشرفة . . وظل يمد
النظر الى نهاية الطريق الممتد نحو المنعطف . وكان الطريق ينحدر
بين مرتفعين صخريين كأنما شق بمعول ضخيم في غابر الزمان . .
وعلى جانبي هذا الطريق المنحدر قامت مساكن البلدة التي لم تكن
تزيد على ثلاثين أو خمسة وثلاثين بيتا صغيرا . وكان كل مد يندفع
نحو البلدة يهدد هذه المساكن بالدمار والزوال . . اما على اليسار ،

فقد كان ثمة رقعة من شاطئ رملى رأى « شانتو » عليها فى تلك الساعة عددا من الرجال يصيحون فى صوت منغم ، وهم يرفعون عن الماء نحو عشرة قوارب صيد ليشدوها الى الصخور حتى لا يحطمها المد أو يكتسحها الجزر

وكان عدد سكان البلدة لايتجاوز المائتين ، يكتسبون رزقهم الضئيل من البحر ، ويتعلقون بمساكنهم على الصخور فى عناء ، كديدان الماء الحمقاء .. وفوق أسقف هذه المساكن المهتدة بالأمواج فى كل شتاء ، كانت تبدو أسقف الكنيسة وأبراجها ، ومداخن بيت آل « شانتو » وأسقفه المائلة .. وكانت تلك هى كل بلدة بونفيل ..

وسمع « شانتو » صوتا يقول :

– انه جو مزعج ..

وسرعان مارأى الاب « هورتير » راعى الكنيسة ، بجسمه البدين ، وشعره الاسود الحالك – رغم بلوغه الخمسين من العمر – وكان فى تلك اللحظة واقفا فى حديقة الكنيسة الخلفية ، القريبة من منزل آل « شانتو » ينظر الى « الخس » المنزرع فى اشفاق ، خشية ان يقضى عليه وابل المطر المنهمر ..

وقبل أن يجيب « شانتو » عليه ، رأى « فيرونيكا » مسرعة نحو البيت وهى تلوح بيديها هاتفة :

– ماهذا ياسيدى ؟ .. أرجوك أن تعود الى الداخل والا ازدادت آلام ساقيك ..

وأطاعها « شانتو » على الفور ، ثم قال لها حين أقبلت الى غرفته :

– ألم ترى أحدا منهم !؟

فردت قائلة بصوتها الحاد :

– لا .. طبعاً .. لابد ان السيدة احتمت من العاصفة فى مكان .. ما ..

ثم أردفت قائلة :

– ولكننى رأيت ماهو أسوأ .. ويبدو لى أن المد هذه المرة سوف يدمر البلدة بأكملها .. ان بيت « كوتش » قد تهدم هذه الليلة كما قال لى « بروان » عندما التقيت به منذ لحظات ..

وفي تلك اللحظة ، ظهر شاب طويل القامة في نحو التاسعة عشرة من عمره ، عريض الجبين ، متألق العينين ، تتهدل خصلات من شعره الكستنائي حول وجهه المستطيل .. وهتف « شانتو » متنهدا في راحة :

- آه .. حسنا .. هاهوذا « لازار » .. يابنى المسكين ، لقد أغرقك المطر ..

وفيما كان الشاب يعلق معطفه الجلدى على مشجب في الصالة ، أردف أبوه قائلا :

- ماذا وراءك من اخبار يابنى ؟

فأجاب « لازار » قائلا :

- لاشيء ! .. لقد ذهبت حتى بلغت فيرمونت حيث احتميت بسقف احدى الحانات ، وركزت أنظاري على الطريق العام .. ولكننى لم أر شيئا .. ولما خشيت أن يستبد بك القلق من أجلى ، بادرت بالعودة

وكان « لازار » قد اتم دراسته الثانوية فى مدرسة الليسيه بمدينة كان ، فى شهر أغسطس السابق .. وظل منذ ذلك الحين يهيم فى جنبات البلدة بلا عمل الا محاولة تأليف بعض المقطوعات الموسيقية مما جعل أمه تشعر بأشد القلق على مستقبله . وكانت قد غضبت منه - عندما ذهبت الى باريس - لانه رفض أن يصحبها حيث كانت تأمل أن تجد له عملا مناسباً فى العاصمة

وقال الشاب مستطردا فى الحديث :

- والآن .. هل ترى يا أبى أن أذهب الى ارومانش الليلة لارى ماذا حدث ؟

فهتف الوالد معترضا :

- لا .. لا .. ان الليل يزداد ظلامه حلقة ، والجو يزداد سوءا .. ولاشك أن والدتك لن تتركنا هكذا دون أن ترسل الينا برقية تنبئنا فيها عن سبب التأخير . آه .. أنصت .. ألا تسمع قرععة عجلات مركبة فى الخارج ؟

وكانت « فيرونیکا » قد أسرعت وفتحت الباب ، ثم قالت :

- انها مركبة الدكتور « كازينوف » .. هل كنت تنتظر حضوره

الليلة ياسيدى ؟ .. يا للسماء .. ان فيها سيدتى ..
وهرع الجميع الى مدخل البيت ، وهبطوا الدرجات الصغيرة
المؤدية الى الطريق ، وأسرع وراءهم كلب الحراسة النيوفونلاندى
الكبير الذى كان حتى ذلك الوقت نائما فى ركن الصالة ، وراح ينبح
بقوة كأنما يعلن عن سروره بعودة سيده البيت

اما القطة الصغيرة البيضاء ، فقد وقفت فى المدخل وهى تعجب
لهذه الضجة .. فلما رأت الطريق الموحد ، لوت أنفها اشمزازا ،
وعادت الى مكانها بجوار المدفأة

وفى خلال هذا كانت مدام « شانتو » ، البالغة من العمر نحو
خمسین عاما ، تهبط من المركبة بخفة ونشاط فتاة فى العشرين من
عمرها .. وكانت صغيرة الجسم ، نحيلة ، سوداء الشعر ، جميلة
الوجه الا من أنف كبير ينم عن الطموح

وأسرع « لازار » اليها يقول لها هاتفا ، وهو يبعد الكلب الكبير
عنها :

– ألم يقع لك حادث يا أماه ؟

– لا .. لا .. مطلقا

وهنا قال الوالد الذى تبع ابنه الى الخارج غير حافل بالريح او
المطر :

– يا للسماء .. لقد شعرنا بأشد القلق .. ماذا جرى ؟!

فأجابت زوجته قائلة :

– لقد سار كل شىء على غير ماينبغى .. فالطرقات ، أولا ،

بلغت من السوء ما جعلنا نقطع المسافة من بايو الى ارومانش فى نحو
ساعتين . وفى ارومانش أصيبت ساق أحد جوادى مركبة «ماليفوار»
.. ولم يستطع أن يستبدل به غيره ، واقترح أن نبيت الليلة فى
حانته . وفى النهاية تطوع الدكتور الطيب وأعارنا مركبته وسائقه
« مارتن » اللطيف

وكان السائق « مارتن » عجوزا مكسور الساق ، وكان الدكتور

« كازينوف » هو الذى أجرى له عملية بتر الساق انقاذا لحياته ،
ثم عهد اليه بقيادة مركبته بعد أن كان فى أول أمره بحارا

وعندما ذكرت السيدة اسم « مارتن » قالت له بسرعة :

– أرجوك يا « مارتن » أن تساعد الطفلة الصغيرة على الهبوط من المركبة

ولم يكن أحد في تلك اللحظة قد فكر في الطفلة الوافدة التي كانت جالسة داخل المركبة في هدوء .. ولكنها حين سمعت كلمات السيدة ، لم تنتظر مساعدة « مارتن » لها ، وانما وثبت بخفة من المركبة .. وكانت ترتدى معطفا اسود ، وتبدو كبيرة الجسم بالنسبة لسنوات عمرها العشر .. واسعة العينين ، ضاحكة السمات ، شاحبة الوجه . وقد راح الجميع يحملقون فيها .. وكانت « فيرونیکا » التي جاءت لترحب بسيدتها ، قد توقفت فجأة حين رأت الطفلة ، وأخذت تنظر اليها في حسد وغضب مكبوت

أما « ماتيو » الكلب الكبير ، فقد اسرع الى الطفلة ، وراح يلحق وجهها مرحبا ، وهنا قالت لها مدام « شانتو » :

– لاتخافى ياعزيزتى .. انه كلب وديع ..

فقالت الطفلة بصوت رقيق :

– اننى لست خائفة .. فأنا أحب الكلاب كثيرا

وبعد أن داعبت الكلب ضاحكة ، قالت لها « عمتها » :

– وماذا بعد ؟ .. ألن تقبلى أهلك يا « بولين » ؟ هذا هو عمك .. وهذا هو ابن عمك .. انه شاب مشاغب وليس طيبا مثلك .. وقبلت الطفلة كلا منهما بدوره ، وهى تنطق بعبارة مناسبة .. وقد قالت لعمها :

– اننى اشكرك يا عمى كثيرا ، لانك قبلتنى فى بيتك ..

وقالت لابن عمها « لازار » :

– أعتقد يا ابن عمى أننا سنكون صديقين حميمين ..

ونظر « لازار » اليها وهو لايدرى أية خيوط غير منظورة كان

القدر فى تلك اللحظة ينسجها ليربط بها مصيره بمصيرها



الفصل الثاني

بولين الصغيرة

تلفتت مدام « شانتو » حولها ، وقالت يمرح :
- ماذا نفعل هنا ؟ .. اننا في غير حاجة لان نزداد بللا بالمطر ..
هاهو قد بدأ يتساقط مرة أخرى ..
ثم استدارت تبحث بعينيها عن « فيرونیکا » فلما رأتها واقفة
في معزل عن الجميع ، قالت لها في لهجة تنم عن التهكم :
- طالب يومك يافتاني الطيبة .. كيف حالك ؟ اذا كنت لاتنوين
ان تسأليني عن حالي ، فأرجوك ان تأتي بزجاجة نبيذ للعجوز
« مارتن » .. اننا لم نستطع احضار حقائب السفر معنا الليلة ،
ولسوف يأتي بها « مالفوار » غدا ..
ثم قطعت حديثها فجأة ، واستدارت نحو المركبة وقالت في جزع
ولهفة :
- حقيبتى .. اين حقيبتى ؟ .. لشد ما فزعت .. خشيت
ان تكون قد سقطت في الطريق
وكانت حقيبة جلدية سوداء متآكلة الاركان .. وقد بلغ من
حرصها عليها انها رفضت ان تعهد بحملها الى احد .. وهكذا عادوا
جميعا الى البيت حيث قالت مدام « شانتو » وهي تشعر بالدفء
النسبي :
- آه .. ما أجمل ان يعود الانسان الى بيته في ليلة كهذه ؟ ..
لقد خيل الى اننا لن نصل أبدا ..
وبعد انصراف السائق « مارتن » .. وبعد ان التف الجميع حول
نيران المصطلى ، حيث أخذت « بولين » تداعب القطة مينو برفق ،
اطلت « فيرونیکا » من باب المطبخ ، وقالت :

— هل أقدم العشاء ؟

فرد عليها رب البيت « شانتو » قائلا :

— نعم .. نعم .. لقد بلغت الساعة السابعة الآن .. ولكن

انتظري يافتاتي حتى تغير سيدتك والصغيرة « بولين » ملابسهما ..

فقالت مدام « شانتو » :

— ولكنني لم أحضر حقيبة ملابس « بولين » .. ومن حسن الحظ

أنا لم نبتل من الداخل .. اخلعي معطفك يا « بولين » .. ساعديها

يا « فيرونيكا » ..

ولما فرغت « فيرونيكا » من مساعدة « بولين » ، عادت تقول :

— والآن .. هل أعد العشاء ؟

فقالت مدام « شانتو » :

— نعم .. أعدى الطعام ريثما نغسل أنا و « بولين » وجهينا

وايدينا ..

وبعد العشاء ، أخذ العم « شانتو » يسرف في الحديث عن آباءه

واجداده .. ولكن الصغيرة « بولين » انصرفت عن الاستماع ،

وعبرت الغرفة حيث وقفت وراء زجاج النافذة ، وراحت تنو الي

الافق الواسع الممتد أمامها الي مالانهاية .. وكانت منذ غادرت

باريس ، وهي مشوقة أشد الشوق لرؤية البحر .. كانت تحلم

به ، ولا تكف عن سؤال عمته عن طيلة السفر ، متوقعة أن تراه وراء

كل مرتفع يجتازه القطار أو المركبة . وأخيرا رأته في أرومانش ،

وأحست بالرهبة تملأ نفسها وهي تنظر اليه ممتدا الي مالانهاية ..

وظلت في الطريق بين أرومانش وبونفيل لا تكف عن اخراج رأسها

بين الحين والآخر من نافذة المركبة لتلقى نظرة عجب ودهشة الي

البحر الممتد بلا نهاية .. وهاهي ذي الآن واقفة في بيت عمها ، تنظر

الي البحر الممتد أمامها ، دون أن تخشى أن يغيب عن ناظرها يوما ..

وكانت أستار الليل قد بدأت تتجمع بسرعة وتنسدل من صفحة

السماء المربدة حيث كانت هبات الرياح القوية تضرب السحب

المتراكمة ، وتدفعها أمامها كأنها قطعان من الاغنام المذعورة .. ولم

يعد في مقدور « بولين » أن ترى في ذلك الافق الممتد الا صفحة البحر

الثائر الزاحف على الشواطئ .. ولم تكن صفحة البحر الا بساطا

من الزبد الابيض يكسو هذه المياه القاتمة ، الزاحفة كالموت ، على
القرية

وبدت القرية نفسها كالمهجورة ، لأن سكانها جميعا كانوا قد
احتموا من العاصفة بمساكنهم وراء الابواب المغلقة باحكام .. اما
القوارب ، فقد تركت على الشاطئ الرملى وبدأت كأنها أسماك
ضخمة ميتة ..

وظل المطر المنهمر يغلف القرية فى غلالة من الضباب القاتم ..
ومن ثم لم يكن فى مقدور « بولين » الا أن ترى المساكن بأسقفها
والكنيسة بأبراجها ، كأنها أشباح خرجت من صفحات قصة
خيالية .. !

وفيما هى واقفة تتأمل هذا المنظر الجديد على حياتها ، سمعت
ابن عمها « لازار » يقول لها حين اقبل ووقف بجانبها :
- ان البحر اكثر اتساعا من نهر السين .. اليس كذلك ؟
وكان « لازار » لا يزال مدهوشا من هذه الطفلة الصغيرة السن
والحجم ، التى تتصرف وتتحدث كالكبار ..
وقالت هى دون أن تستدير برأسها نحوه :

- نعم ..

- ألا تشعرين بالخوف ؟

فنظرت اليه عندئذ مدهوشة وقالت :

- لا .. ولماذا أخاف ؟ ان مياه البحر لن ترتفع الى هنا مهما
حدث ، اليس كذلك ؟

فقال وهو يشعر بالرغبة فى مداعبتها :

- اه ، من يدري ؟ .. فان مياه البحر تصل احيانا الى قمة
الكنيسة !

وعندئذ انفجرت الصغيرة « بولين » ضاحكة .. ثم أمسكت بيد
ابن عمها ، وقالت بصوت ينم عن طبيعتها المرحة :

- أوه .. يبدو يا ابن العم أنك تعتقد أننى بلهاء ! .. والا كيف
يمكن ان تبقوا فى هذا البيت عندما تصل مياه البحر الى قمة
الكنيسة !؟

وضحك « لازار » أيضا ، وأمسك « بولين » من كلتا يديها ،

وشعر كل منهما في تلك اللحظة أنه صديق حميم للآخر .. وقد
اقبلت مدام « شانتو » عندئذ وابتسمت قائلة :
- حسنا .. حسنا .. لقد أصبحتما صديقين ، كنت أعرف أن
هذا سيحدث منذ اللحظة الأولى ..

ثم استدارت نحو زوجها الذى كان منهما في تناول بعض الفاكهة
الدسمة « قشطة الشجر » وأردفت قائلة :
- ان اسرافك فى اكل هذه الفاكهة يا « شانتو » سوف يعرضك
لاحدى نوبات النقرس المؤلمة ..

فغمغم الرجل بصوت ينم عن الضيق :
- أوه .. اننى لا أستطيع أن أعيش محروما من كل شيء ..
ثم رأى أن يغير الموضوع ، فقال وهو ينظر الى الافق من وراء
زجاج النافذة :

- يا للسماء .. ان البحر يزحف على القرية باصرار ، ومع ذلك
فلا يزال على فورة المد ساعتان ..
وقال « لازار » :

- لو كانت الرياح تهب من الشمال ، لقلت ان بونفيل سوف
تتحطم الليلة .. ولكنها لحسن الحظ تهب من الجانب الآخر ..
وبينما كانت الطفلة تصغى الى هذا الحديث فى رهبة واهتمام ،
قالت مدام « شانتو » :

- أيا كان الامر فنحن هنا فى أمان .. أما الآخرون ، فان عليهم أن
يعنوا بشئونهم .. لكل انسان متاعبه الخاصة ، وليس من المعقول
ان يحمل انسان متاعب الآخرين .. مارأيك يا صغيرتى « بولين » فى
قدح شاي ساخن ثم نأوى بعد ذلك الى مخادعنا ؟

وفيما كانت « فيرونكا » تعد الشاي ، أحضر « لازار » الاوراق
والقلم والمحبرة ، وجلس الى مائدة صغيرة بجوار المصباح ، وبدأ يكتب
.. وعندئذ قالت له أمه :

- هل تشغل نفسك بالنوتة الموسيقية ، حتى فى ليلة عودتى بعد
غيبة هذه الاسابيع يا « لازار » ؟ ..

فقال « لازار » وهو منهمك فى الكتابة :
- اننى معك هنا يا أماه .. وسوف أبقى بجانبك دائما ،

وانشغالى لن يمنعنى من الاصفاء الى حديثكم .. تحدثنى وسوف
أشاركك الحديث وأجيب على أسئلتك ..

وشرعت الاسرة تتحدث ، ولكن النوم غلب « بولين » على أمرها
قبل أن تفرغ « فيرونیکا » من اعداد الشاى .. ونظر « شانتيو »
الى الطفلة ، فلما اطمأن الى انها مستغرقة فى النوم ، قال لزوجته
بصوت خافت :

– هل استطعت ان تسوى الامور مع شريكى « دافوا » فى « كان » ؟
فقلت لزوجته بصوت خافت أيضا :

– ألم أقل لك ان هذا الشريك يخدعنا ؟

وكانت الاسرة تعيش على نوعين من الدخل السنوى .. النوع
الاول ، ممتلكات تدر عليها نحو ثلاثة آلاف فرنك (أى مائة وخمسين
جنيها) سنويا ، والنوع الثانى نصيبها من أرباح الشركة ، وكان
المفروض أن يدر عليها نحو خمسة آلاف فرنك (نحو مائتين وخمسين
جنيها) سنويا .. ولكن الشريك « دافوا » اعتاد فى كل عام أن يخدع
« شانتيو » وأن يزعم أن الارباح نقصت كثيرا عن العام السابق ،
وهكذا كان الدخل فى الشركة يقل عاما بعد عام ..

ولما أدركت مدام « شانتيو » أن زوجها – المصاب بداء النقرس –
لن يستطيع أن يحقق أحلامها فى الثراء ، تحولت بكل طاقتها الى
ابنها « لازار » .. ومن ثم الحقته بمدرسة الليسيه ، وراحت تعاونه
على استيعاب دروسه كل ليلة .. اذ كانت قبل أن تتزوج ، مربية
أطفال

واذا كانت قد قبلت أن تقيم فى البلدة الصغيرة بونفيل ، فانما
لكى تستطيع أن تدخر من ايراد الاسرة السنوى مبالغ تمكنها فيما
بعد من العودة الى مدينة « كان » بايراد لا يقل عن عشرين ألف
فرنك (ألف جنيه) سنويا

ولكن الامور ظلت تنحدر من سىء الى أسوأ ، حتى اضطرت الاسرة
الى الحياة فى بونفيل على ايراد لايزيد على ثلاثة آلاف فرنك .. ومن
ثم باعت المركبة والجياد ، واكتفت بخادمة واحدة هى « فيرونیکا »
وهاهوذا « شانتيو » يستجمع شجاعته ليقول لزوجته :

– اسمعى يا « ايوجين » .. انك فى الواقع مسئولة عن هذا

كله ، لانك تشبثت بأن يكون « دافوا » هو الشريك الوحيد لنا ..
فقلت زوجته بشيء من الحدة :

– وماذا كان في وسعنا أن نفعل ؟ .. هل أنا التي مرضت بداء
النقرس ؟ .. أم كنت تريد أن تجعل لنا عدة شركاء يمتصون جميع
الأرباح ؟!

– ولكن « دافوا » ... ؟

– انه يقول ان اسعار الخشب سوف ترتفع هذا الشتاء ، وبذلك
يستطيع أن يحقق لنا أرباحا غير منتظرة ...

وهنا قال « لازار » دون أن يرفع رأسه عن الورقة التي كان
يكتب فيها :

– وحتى اذا لم يحقق لنا أرباحا ، فماذا سيحدث ؟! اننا لن
نموت جوعا على كل حال .. وأنا شخصيا لا أقيم وزنا كبيرا للمال
فقلت أمه وهي تنظر الى كتاباته شذرا :

– طالما أنك مشغول بهذا اللغو الفارغ ، فانك لن تكون ثريا في
يوم ما .. وان أشد ما أخشاه أن ينتهي بك الامر الى التجول في
الطرق الموحلة باحثا عن تلاميذ تعطيهم دروسا خاصة في الموسيقى
ثم تناولت من حقيبة يدها بضعة أوراق ، وأردفت قائلة لزوجها :
– هذه هي تقارير « دافوا » عن الخسائر والأرباح في الشهور
الثلاثة الاخيرة ، واذا استمرت الأحوال على هذا المنوال ، فسوف
نغدو مدينين له في الشهور الثلاثة التالية ..

وتناول « شانتو » الأوراق ، وألقى عليها نظرة سريعة ، ثم وضعها
على المائدة أمامه . وفي تلك اللحظة ، أقبلت « فيرونিকা » تحمل
الشاي ، ولما وضعته وانصرفت ، قال « لازار » :

– ألا نوقظ « بولين » الآن ؟ .. لاشك أنها غير مستريحة وهي
نائمة هكذا

فقلت الام في شرود :

– نعم .. نعم ..

ونظر الثلاثة الى الطفلة النائمة في هدوء ، وكانت أنفاسها تتردد
بانتظام ، وشعرها الذهبي يتهدل حول وجهها الشاب وشفتيها
الحمراوين . وكانت على الجملة تبدو في تلك اللحظة كأنها زهرة في

لوحة تمثل الطبيعة الساكنة

وعادت مدام « شانتو » بذاكرتها الى رحلتها الاخيرة الى باريس .
وكانت في الواقع متحمسة لقبول الوصاية على « بولين » ولكنها لم
تحاول قط أن تعترف فيما بينها وبين نفسها ان هذا الحماس
يرجع الى الثروة الكبيرة التي ورثتها الطفلة عن والدها . . !

ورأت أن الوقت قد حان لتحدث زوجها وابنها - بايجاز - عن
رحلتها هذه الى باريس ، فقالت :

- عندما دخلت المتجر الكبير ، رأيت « بولين » جالسة في ثوبها
الاسود . . وقد قبلتها وبكيت معها ، والواقع ان المتجر كان كبيرا
ورائعا وتقوم بالبيع فيه ثلاث عاملات . وكانت رئيسة العاملات
فتاة كبيرة الجسم ، تدعى « أديلين » وهي التي أخطرت محامي
الاسرة عن وفاة « كوينو » ابن عمك ، وحافظت على كل شيء ، حتى
سويت الامور كلها . .

وبعد برهة صمت ، استطردت مدام « شانتو » قائلة :
- لقد تمت الاجراءات بسهولة تامة ، واجتمع ثلاثة من افراد
أسرة والدتها ، وثلاثة من أفراد اسرتك . . وقرر الجميع ان تكون
وصيا على الطفلة ، وأن يكون المسيو « ساكارد » المراقب ونائب
الوصي

وعندئذ قال « لازار » :

- كفى . . فلنلذ بالصمت ، انها تستيقظ . .

وكانت « بولين » قد بدأت تطرف بعينيها ، ثم راحت تنظر الى
الثلاثة بابتسامة بريئة . . ولكنها لم تلبث أن عادت الى استغراقها
في النوم

وقال « شانتو » :

- أتعنين « ساكارد » سمسار بورصة الاوراق المالية ؟

- نعم . . انه يشتغل بأعمال كثيرة ، وقد قابلته وتحدثت معه
طويلا ، وأفهمته أننا لانحب أن يتدخل أحد في شئوننا طالما ان الطفلة
راضية بالحياة معنا . . وأنا لن نأخذ من ايراد ثروتها الا ثمانمائة
فرنك سنويا مقابل نفقاتها . وتمت الموافقة على ذلك ، كما تم حصر
التركة وبيع المتجر بالمزاد العلني . وقد اشترينا بالثروة كلها أوراقا

مالية قيمتها مائة وخمسين ألف فرنك ، لا تقل أرباحها السنوية عن عشرة آلاف فرنك ..

ثم ربتت بيدها على الحقيبة الجلدية السوداء الموضوعه بجوارها ، وقالت :

– ان هذه الاوراق المالية موجودة كلها هنا ..

وقال « لازار » وهو يضع القلم أخيرا :

– ان الشاى سوف يبرد يا أماه .. هل أملا الإقداح ؟

وقبل أن ينتظر اجابتها ، نهض وراح يصب الشاى فى أقداحهم الاربع ، بينما عادت امه الى الحديث قائلة :

– اننا لن نأخذ من أرباح هذه الاوراق المالية الا ثمانمائة فرنك سنويا ، ومن ثم سوف نضيف الباقي الى أصل الثروة حتى نضاعفها عندما تبلغ الطفلة سن الرشد ..

وقال العم بحماس :

– نعم .. نعم .. انها أمانة بين أيدينا ، وسوف نبذل كل جهد للعناية بها

وقال « لازار » :

– وهى أيضا لطيفة خفيفة الظل .. وأعتقد أننى أحببتها من الآن

ويبدو أن حركة صب الشاى فى الإقداح أيقظت « بولين » من نومها .. فاذهى تفتح عينيها ، وتتلقت حولها ، ثم تعتدل فى جلستها وتبتسم للجميع ، ثم تشرب قدها بهدوء ..

وكأنما خشيت مدام « شانتو » أن تعود الطفلة الى النوم فى مكانها ، فقالت لـ « فيرونیکا » :

– احضرى الشمعدانات .. لقد بلغت الساعة العاشرة ، ويحسن أن نصعد الى مخادعنا والا أسفر علينا الصباح ونحن منهمكون فى الحديث ..

وفىما كانت « فيرونیکا » تعد الشموع ، سمعت مدام « شانتو » فمغمة حديث تنبعث من المطبخ ، فلما عادت بالشمعدانات الاربعة ، قالت لها سيدتها :

– من كان يتحدث معك فى المطبخ يا « فيرونیکا » ؟

– انه « بروان » .. جاء يقول ان المد اوشك ان يدمر كل شيء
في القرية ..

وكان « شانتو » قد وافق على أن يغدو عمدة بلدة بونفيل ..
وكان « بروان » الحمال يعمل في وقت فراغه كمساعد للعمدة . فلما
سمع « شانتو » ما قالت الخادم ، أمر باستدعاء « بروان » الى
الغرفة ، وقال له :

– ماذا حدث يا « بروان » ؟

وقال الرجل وهو يدير قبعته الصوفية بين يديه :
– لقد تحطم بيت « كوتش » هذه المرة .. واذا استمر الحال
هكذا ، فسوف يأتي الدور على بيت « كونين » .. وقد ذهبنا
جميعا للمشاركة في عملية الانقاذ ، ولكن ما الفائدة امام جبروت
البحر وقسوة الجو يا سيدى

وخيم الصمت على الجميع برهة ، ولكن زئير الرياح في الخارج ،
وهدير الامواج ، وضربات المطر على السقف كأنها طلقات نارية ،
جعلت الجميع يشعرون بما في حديث « بروان » من واقع مؤلم ..
وقالت مدام « شانتو » وهى تتنهد :

– يبدو لى أن نهاية العالم قد دنت .. ترى أين سيذهب أفراد
أسرة « كوتش » الليلة ؟

فقال « بروان » :

– لابد أن يفسح لهم أحد سكان القرية مكانا في بيته .. انهم
يقيمون الآن مع آل « كونين » .. ولكن يبدو لى ان اصحاب البيت
اسوأ حالا من اللاجئين .. !

وكانت « بولين » قد عادت مرة اخرى الى النافذة ، تنظر من
خلال زجاجها الى ثورة الطبيعة الجامحة في الخارج .. فلما سمعت
حديث « بروان » قالت بصوت مرتعد :

– يا للبؤساء المساكين ؟ ..

وقال « لازار » :

– لسوف أذهب معك يا « بروان » .. ولعل الفرصة لا تزال
سانحة لكى نعمل شيئا ..

ولكن « بروان » هز رأسه وقال :

– لا يا سيد « لآزار » .. انك لن تستطيع ان تفعل اكثر مما فعلنا .. ليس فى مقدر احء الا ان يقف مكتوف الءءءن ، ءاعىا الله ان ىنتهى الامر عند هذا الحد .. لءء حضرت فقط لآخطر السءء « شانتو » بما ءءء ..

وأءس « شانتو » بالضىق الشءءءء ، وهو ىءرك ان هذا الآبر سوف ىفسء علىه رآءته وىؤرق نومه ، ومن ثم قال بءءة وانفعال : – اننى فى الواقع لست أءرى لماءا أقمتم هذه البلاءة فى هذا المكان ؟ .. ان البحر ىأكل جزءا منها كل عام ، ومع ذلك لا تفكرون فى الانتقال منها الى مكان أصلى ..

فقال « بروان » :

– وأىن هو المكان الأصلى يا سءءءى ؟ .. لءء عشنا هنا ، ولس أمانا الا ان نستمر فى ءىاتنا .. ومن ىءرى ، فلعل هذا المكان أصلى من ءىره ..

وهنا قالت مءام « شانتو » :

– صدقت يا « بروان » .. لس هناك مكان ىمكن ان ىكون مثالىآ آالىا من المتاعب . وعلى كل ءال ، ىجب ان تأوى الآن الى مخاءعنا .. وفى الصبآ ىمكننا ان نرى بوضوح ماءا ءءء

وأءنى الرجل رأسه ، وانصرف ..

وقالت مءام « شانتو » لزوءها :

– ىءسن ان تأوى الى فراشك يا ءزىزى .. وسوف نصعد نحن

الى مخاءعنا فورا ..

وكان « شانتو » ءء اتآء لنفسه ءرفة بالطابق الارضى من المنزل ءتى لا ىءهد ساقىه فى الصعود والهبوط .. وقء نهض عندما سمع ءلمات زوءته ، وتءءم الى باب ءرفة نومه وهو ىشعر ببوارء نوبة النقرس ، مما ءعله ىنءم على اسرافه فى تناول الاطعمة الءسمة فى وءبة العشاء ..

وعند الباب ، توقف واستءار قائلا :

– طابء لىلتكم ءمىعا .. وأرءو لك نوما هنىئا يا صءىرتى

« بولىن » ..

وأسرعء « بولىن » الىه ، وقالت وهى تقبله :

– طابت ليلتك يا عمى . . .

وصعد الثلاثة – حاملين الشمعدانات الصغيرة – الى الطابق الأول . وهناك توقفت الصغيرة « بولين » فى مدخله مترددة لا تدرى ماذا تفعل ، ولكن مدام « شانتو » دفعت بها فى رفق وهى تقول :

– ادخلى يا عزيزتى . . فان لدينا هنا غرفة اضافية ، وغرفتى تقع امامها مباشرة . . تعالى الى غرفتى لحظة لكى تريها . .

وكانت غرفة كبيرة مزينة بستائر صفراء ، ومؤثثة بما يلزم لنوم سيدة من الطبقة المتوسطة . وقد تقدمت مدام « شانتو » الى مكتب من الطراز القديم ، ورفعت غطاءه ، وفتحت أحد ادراجها الصغيرة ، وأخلته مما كان فيه . . ثم وضعت فى داخله الأسهم والسندات التى تتكون منها ثروة « بولين » وقالت :

– هنا ترقد ثروتك يا عزيزتى « بولين » فى امان . . ام لعلىك تريدان ان تحتفظى بها فى مكان آخر ؟

فاضطرم وجه الصغيرة ، وقالت بارتباك :

– أوه ؟ ان هذا لا يهم كثيرا يا عمى . .

وكان « لازار » واقفا وراءهما ، يحمل شمعدانه الى اعلا لينير

لهما المكان . وقالت مدام « شانتو » وهى تفلق الدرج بالمفتاح :

– يمكنك أن تطمئنى الى ثروتك يا صغيرتى . . فاننا نفضل ان نموت جوعا على ان نلمس منها فرنكا واحدا . . تذكرى . . انها هنا فى الدرج الأول من الجانب الايسر . ولسوف تبقى فى مكانها هنا حتى تكبرى وتأخذها بنفسك . . وما أظن أن القطة مينو يمكنها ان تفتح الدرج وتأكل الأوراق . . !

وضحكت « بولين » للعبارة الاخيرة ، وزال شعورها بالارتباك . .

وراحت تلعب مع « لازار » الذى أخذ يقلد القطة مينو فى هريرها وفى بعض حركاتها . . ولكن مدام « شانتو » أمرته أن يكف عن هذا التهريج ، ثم قالت :

– لسوف أصعد الآن الى الطابق الثانى لارى هل اعدت

« فيرونيكا » غرفتك كما يجب . .

فقلت « بولين » فى دهشة ، وهى تشير الى الغرفة المقابلة :

– اليست هذه غرفتى ؟

- لا .. انها غرفة اضافية للضيوف .. ان غرفتك فى الطابق
الثانى ، امام غرفة « لازار » مباشرة .. تعالى معى ..
ولما صعدت « بولين » الى الغرفة المخصصة لها ، توقفت فى
مدخلها مدهوشة من اتساعها ، ومن جمال الاثاث الموضوع فيها ،
وكانت نوافذها ذات الستائر المخملية تطل جميعها على البحر الممتد الى
ملا نهاية ..

وبعد أن فحصت مدام « شانتو » الغرفة بنظراتها الثاقبة ،
قالت :

- ان كل شىء معد هنا : المناشف ، والصابون ، والماء ، والسكر ..
وغرفة « فيرونيكا » بجانبك مباشرة ، فاذا اردت شيئا منها يمكنك ان
تنقرى على الجدار الفاصل بينكما ..
وهنا قال « لازار » :

- أو تنادى على .. فان غرفتى تقع أمام غرفتك ..
وشكرتهما « بولين » ثم قالت :

- طابت ليلتك يا عمى .. طابت ليلتك يا ابن عمى ..
فقالت مدام « شانتو » :

- طابت ليلتك يا عزيزتى .. هل ستغيرين ملابسك بنفسك ؟

- نعم .. اننى اعتدت على هذا .. فانا لم اعد صغيرة الان

وقبلتها مدام « شانتو » وانصرفت .. وأسرعت « بولين » الى
النافذة ، وراحت تنظر من وراء زجاجها الى البحر ، والى المطر
المتساقط بفزارة .. ولكن كل شىء بدأ لها فى الخارج قاتما مغلغا
بالليل والضباب ، ومع هذا ، فقد شعرت بالرضى والسعادة وهى
تسمع هدير البحر من بعيد .. وأخيرا استدارت وراحت تسير فى
ضباب غرفتها ، وقد أسعدها أن تكون لها غرفة خاصة تنفرد فيها
بنفسها وقتما تريد كأي شخص بالغ ..

وأخذت تخلع ثوبها الخارجى ، ونظرت الى المرآة وهى فى ملابسها
الداخلية .. وفجأة شعرت بالقلق وهى تتساءل : كيف يمكن أن
تنجو اذا خافت من شىء .. والباب مفلق من الداخل ؟

وأسرعت الى باب الغرفة ففتحته باضطراب ، وراى « لازار »
فى وسط غرفته المقابلة يهم بخلع ملابسه . ولما رآها ، قال مدهوشا :

- ماذا حدث يا « بولين »؟! هل تريدن شيئا؟ ..
واحمر وجهها بشدة ، وحاولت أن تكذب ، ولكنها قالت :
- اننى اشعر بالخوف عندما انام فى غرفة مغلقة بالمفتاح .. ولهذا
لن اغلق الباب من الداخل .. واذا نقرت على الباب ، فهذا يعنى
اننى اريدك انت ، لا « فيرونىكا » ..
فتقدم « لازار » اليها ، باسطة ذراعيه ، قائلا فى مودة :
- لا تخافى من شىء يا صغيرتى .. طابت ليلتك ..
وتعلقت هى بعنقه فى براءة الطفولة ، وقالت :
- طابت ليلتك يا ابن عمى العزيز ..
وبعد خمس دقائق ، اطفأت الشمعة ، ثم آوت الى فراشها ..
وما هى غير لحظات حتى استغرقت فى النوم ..



ذهبت الى زوجها وقالت له في شبه يأس :

- الا يمكن ان نستريح يوما واحدا من صيحاتك هذه يا عزيزى ؟ !

وامتلأت نفسها مرة أخرى بالثورة العنيفة على هذا النقرس اللعين الذى كان السبب المباشر فى حياتهما هذه المملة انيائسة بتلك البلدة الحقيرة ..

وقال الرجل متوجعا :

- يا لفظاعة الالم .. ان هذه النوبة ستكون أقسى من النوبة

التي سبقت . لا تقفى هكذا يا « أيوجين » كأنك تتفرجين على ..

اذا لم يكن فى مقدورك أن تفعل شئيا .. أستدعى الدكتور « كازينوف » ..

وانقلبت الحياة فى البيت رأسا على عقب ، وذهب « لازار » الى ارومانش ليأتى بالطبيب ، رغم يقين الاسرة من عجز الطب أمام هذه الحالة .. ذلك أن « شانتو » كان قد حاول فى السنوات الخمسة عشرة الاخيرة كل أنواع العلاج بلا جدوى .. بل لقد كانت الحالة تزداد سوءا عاما بعد عام

وأسرعت الصغيرة « بولين » الى غرفة عمها ، ووقفت بجوار السرير وأخذت تراقبه فى حزن وعطف . وظلت مدام « شانتو » واقفة تعرب عن ضيقها من صيحات زوجها . ولما حاولت « فيرونিকা » أن تغير أغطية فراشه ، صاح بها قائلا :

- ابتعدى عنى .. انك تزيدين آلامى بخشونة يديك .. انك

تمسكين بى وكأنى صرة من الملابس القديمة !

وهنا قالت « فيرونিকা » فى سخط وتمرد :

- اذن لا تستدعينى يا سيدى .. وما دمت تعامل الناس هكذا ،

فعليك أن ترعى شئونك بنفسك ..

وتقدمت « بولين » نحو فراش المريض ، وراحت تغير الاغطية

برفق شديد مما جعل « شانتو » يحس ببعض الراحة ، ومن ثم قال :

- آه .. شكرا لك يا صغيرتى .. ان اصابعك الصغيرة مليئة

بالعطف والحنان .. آه .. انظرى .. ان هذا الجانب من الغطاء

يثقل على قدمى وكأنه يزن خمسمائة رطل !

وظلت الصغيرة بجانبه فى الغرفة بعد انصراف زوجته والخادم ،
كانت تحقق كل رغباته فى رفق ، وتحمل كل مايدر منه فى حنان
وعطف وكأنها ممرضة مدربة ..

ولما حضر الطبيب أخيرا ، قبل جبين الطفلة - أو الممرضة
الصغيرة - وكان رجلا فى نحو الرابعة والخمسين ، قضى ثلاثين عاما
وهو يشتغل طبيبا بالسفن التى تجوب مختلف أنحاء العالم ، وأخيرا
استقر بمدينة أرومانش ، وتوطدت بينه وبين آل « شانتو » وأصر
الصداقة بعد أن أصبح طبيب الأسرة

وقال الطبيب للمريض برفق :

- آه .. نوبة أخرى يا عزيزى « شانتو » .. حسنا .. حسنا ..
.. لقد جئت فقط لزيارتك ، وأنت تعرف انى لا أستطيع أن أفعل
لك أكثر مما تفعله هذه الطفلة .. فما دمت قد ورثت هذا الداء
وبلغت هذه السن ، فعليك أن تتحمل آلامه بصبر حتى نهاية العمر .
والواقع أن العلاج الوحيد كما تعرف هو الصبر والدفء والامتناع
عن الخمر والاطعمة الدسمة

ولكن الطبيب لم يلبث أن قطب جبينه قلقا ، حين رأى حبة
صغيرة بيضاء تبدو على طرف أذن المريض ، مما جعله يدرك أن
المرض الذى كان حادا أصبح مزمنا ..
وقال « شانتو » متوجعا :

- ليس من المعقول أن تتركنى أتألم على هذا النحو .. !

فحاول الدكتور « كازينوف » ان يبدو متفائلا ، وقال :

- حسنا .. لسوف أحاول معك بعض الاملاح القلوية .. ولكن
لا تنس أنك مسئول الى حد كبير عن هذه الحالة .. انك لا تنفذ
تعليماتى ، ولا تقوم بأية رياضة ، ولا تمتنع تماما عن الخمر ، وأستطيع
أن أراهن أنك أكلت أمس طعاما دسما
فقال المريض معترفا :

- تناولت قطعة صغيرة من فاكهة قشطة الشجر

فهز الطبيب رأسه فى سخط ، ولما وضع له الدواء ، وأصدر

اليه التعليمات ، قال للصغيرة « بولين » :

- أعطه من هذا الدواء ملعقة صغيرة كل ساعتين ، ويمكنه أن

يشرب من المياه المعدنية ما يشاء .. ولكن لابد له من الحماية
الشديدة في الاكل

وقالت مدام « شانتو » وهى تودع الطبيب عند باب المنزل :
- أظن يا دكتور « كازينوف » أن فى مقدورنا منعه من تناول
ما يشاء من الطعام ؟

وسمعتها « بولين » وهى تقول هذا ، ومن ثم قالت بسرعة :
- لا .. لا .. يا عمى ! .. لسوف يطيعنا هذه المرة ، وأنا
المسئولة عن هذا ..

ونظر الطبيب الى الصغيرة فى دهشة ، ثم قبلها مرة أخرى وهو
يقول :

- هذه الطفلة ولدت لتساعد غيرها من الناس على احتمال الآلام
وظل « شانتو » أسبوعا كاملا وهو يصرخ ويولول متوجعا ..
وأخيرا أخذت نوبة الألم تخف تدريجيا ، مما أتاح للصغيرة « بولين »
أن تسترد بعض حرقتها بعد أن ظلت الاسبوع كله وهى تلازم غرفة
المريض

وأخذت الطفلة بعد أن استردت حرقتها ، تقضى معظم أوقاتها مع
ابن عمها « لازار » فى غرفته .. وكانت غرفة واسعة ، فيها سرير
صغير موضوع فى ركن قصى وراء ستار من القماش السميك ، كما
كانت تحتوى على بيانو عتيق ، وأشياء كثيرة أخرى منها عدد كبير
من الكتب والروايات

وكانت تلك الغرفة الواسعة تبدو فى نظر « بولين » كأنها جنة
أحلام ، أو جزيرة روبنسون كروزو .. وكانت تحس أن فى مقدورها
أن تعيش كل أيام حياتها فيها ، وهى تلعب مع ابن عمها « لازار »
الذى شعر أن السماء قد ارسلت له اختا تصغره بتسعة اعوام ، ولكنها
لطيفة وذكية وقادرة على أن تتجاوب معه فى كل شىء ..

وكان « لازار » يقضى أحيانا ساعات كاملة أمام البيانو ، عازفا
بعض المقطوعات التى لحنها ، مؤكدا ل « بولين » أنه سيفدو يوما ما
أشهر أعلام الموسيقى فى العالم . وفى ذات يوم ، قال لها انه سيضع
سيمفونية عالمية اسمها « جنة الارض » . وبعد أيام قليلة ، قال
انه فرغ من تأليف القسم الاول من هذه السيمفونية ، وهو القسم

الذى يصور خروج آدم وحواء من الجنة ..

وأعربت «بولين» - أول الامر - عن إعجابها وسرورها بعبقريته ، ولكنها لم تلبث أن راحت تناقشه وتقول له انه قد يكون من الافضل لو نزل على رغبة والديه واستكمل دراسته بالجامعة ليصبح محاميا أو قاضيا . وكان الحزن كثيرا ما يخيم على جو الاسرة بسبب المنازعات التى تقع بين الأم وابنها .. فالأم تصر على أن يذهب فى اكتوبر الى باريس ليلتحق بالجامعة ويعد نفسه لمستقبل محترم ، والابن يصر على أنه اذا ذهب الى باريس فلا بد أن يلتحق بالكونسرفتوار ليغدو موسيقيا شهيرا . ووقفت « بولين » بجانب عمته فى هذا النزاع ، وأكدت لها - بكل ثقة - أنها ستعرف كيف تجعل «لازار» ينزل على رغبتها . ولما سمع « لازار » هذا ، أغلق البيانو بعنف وقال :

- يا لك من صغيرة مغرورة !

وخاصمت « بولين » صديقها وابن عمها « لازار » ثلاثة أيام قبل أن تصالحه .. ورأى « لازار » أن يضمها الى جانبه ، بأن يعلمها العزف على البيانو . وهكذا أخذ يقضى معها كل يوم ساعات طويلة وهو يضع أصابعها الصغيرة على أوتار البيانو ، ملقنا اياها المبادئ الاولية للعزف . ولكنه صدم حين رأى أنها لا تشعر بأى حماس للموسيقى .. بل لقد أخذت هى تتندر عليه قائلة ان القطة مينو تستطيع أن تصنع مثل هذه السيمفونيات الرهيبة لو أنها أخذت تتواثب على الأوتار ! .. ومن ثم قال لها ذات يوم فى غضب شديد :

- لقد يئست من تعليمك العزف أيتها الحمقاء الصغيرة .. واذا شئت أن تستمرى فى هذا العبث ، فيمكنك أن تلجئى الى والدتى لتقوم بهذه المهمة

وردت « بولين » عليه قائلة :

- ليس هناك جدوى من هذه الموسيقى ، ولو كنت فى مكانك ، لتعلمت الطب !

فحملك فى وجهها مدهوشا ، وقال :

- من أوحى اليك بهذه الفكرة الخبيثة ؟ .. قولى لوالدتى اننى سوف أقتل نفسى اذا منعونى من الالتحاق بالكونسرفتوار !

ولما أقبل الصيف ، كان « شانتو » قد تحرر تماما من نوبة آلام
النقرس .. ومن ثم استطاعت « بولين » أن تمضى مع « لازار »
في جولاته خارج البيت . ولشد ما كانت تشعر بالسعادة والابتهاج
وهي تنطلق معه لاعبة على صخور الشاطئ ورماله ، أو حين تنعم
بالسباحة معه ، بعد أن تعلمتها على يديه ، أو حين يقضيان ساعات
جميلة فى تلك البقعة المنعزلة من الشاطئ - البعيدة عن العيون -
التي أطلقا عليها اسم « الشاطئ الذهبى »

وانصرفت الايام بسرعة ، واخذ شهر اغسطس ينصرم بدوره دون
أن يستقر « لازار » على شيء . وكان شعوره بالسعادة مع « بولين »
خارج البيت ، قد أنساه مشروع سيمفونية « جنة الارض » أو لعله
شعر بالسأم منها .. ومن ثم أغلق البيانو ، ولم يعد يشغل أمسياته
بالكتابة الموسيقية

وفى أواخر شهر سبتمبر ، فوجئت « بولين » به وهو يقول انه
قرر أن يذهب الى باريس لدراسة الطب .. ولكنه أكد لها ان
دراسته للطب لن تمنعه من التردد على الكونسرفتوار ليلا ليتعلم
الموسيقى . ولشد ما كانت سعادة مدام « شانتو » عندما سمعت
هذا القرار .. حقا لقد كانت تتمنى أن يفدوا ابنها محاميا أو قاضيا .
ولكن ، لا بأس .. ان كثيرا من الاطباء استطاعوا اقتناء ثروات طائلة
من هذه المهنة ، فلماذا لا يكون « لازار » واحدا منهم ؟!

وقالت الام ل « بولين » وهي تقبلها :

- لا بد أنك حورية هبطت علينا من السماء يا صغيرتى ؟ .. والا
فكيف جعلته يتخذ هذا القرار الخطير بالنسبة لمستقبله !

وتم الاتفاق على كل شيء .. وتقرر أن يرحل « لازار » فى أول
شهر اكتوبر . ولكن حدث - قبل موعد الرحيل بأسبوع - أن جلس
الاثنان « لازار » و « بولين » على الشاطئ حتى غابت الشمس ،
وبدأت النجوم تظهر فى صفحة السماء الواحدة بعد الاخرى ..
وعندئذ قالت « بولين » ببراءة :

- ما أجمل هذه النجوم يا « لازار » ؟

ونظر « لازار » الى النجوم بوجه مضطرب ، وهي ترسل ضوءها
الخافت فى العالم اللانهائى ، ثم قال :

– انك لم تعرفي الكثير عن هذه النجوم .. ان كل نجم منها شمس تدور حولها مجموعة من الكواكب . وهناك نجوم أخرى كثيرة لانراها بالعين المجردة ، انها تعد بالملايين وآلاف الملايين .. اننى أشعر بالرهبة والخوف كلما نظرت اليها .. اننى لا أحبها ..

ووضع رأسه بين يديه ، وخيم الصمت برهة غير وجيزة الا من هدير البحر .. وفجأة سمعت « بولين » صوت نحيب بجوارها ، فلما التفتت الى « لازار » رأت جسمه يهتز بالبكاء ، فقالت فى جزع :
– ماذا بك يا « لازار » ؟ .. هل تشعر بالمرض ؟

وظل برهة لا يجيب من فرط انخراطه فى البكاء .. ولما تماثلت نفسه قليلا ، سمعته يتمتم قائلا وكأنما يحدث نفسه :
– أوه .. ما أشجع الموت يا الهى .. !

وعبثا حاولت « بولين » أن تنسى هذا المنظر بعد سنوات وسنوات ..

ونفض « لازار » أخيرا فى اعياء ، وسارا فى طريق العودة الى البيت فى ظلام الليل ، ومع هدير أمواج البحر .. ولم يتبادلا أثناء العودة كلمة واحدة ، ومن ثم اكتفت « بولين » بالسير بجانبه فى سكون ..

وفى تلك الليلة ، وجدا فى انتظارهما زائرة جديدة .. كانت جالسة فى غرفة المائدة تتحدث مع مدام « شانتيو » .. وكانت الاسرة طيلة الاسبوع السابق تنتظر حضور هذه الزائرة .. انها كانت الصبية « لويز » البالغة من العمر احدى عشرة سنة ونصف سنة تقريبا ، والتي اعتادت ان تقضى نحو اسبوعين فى بونفيل كل عام .. وكانت بأمها قد ماتت بين ذراعى مدام « شانتيو » بعد أن أوصتها بالعناية بابنتها « لويز » .. أما والدها ، مدير أحد البنوك فى مدينة « كان » ويسمى المسيو ثيبودير – فتد انتظر ستة اشهر بعد وفاة زوجته ، ثم تزوج مرة أخرى ، وأنجب من زوجته الثانية ثلاثة أبناء . ولما كان مشغولا دائما بأعماله المالية وبأعبائه العائلية ، فقد آثر أن يلحق ابنته بمدرسة داخلية ، كما كان يسره دائما أن يتخلص منها فى أيام العطلات المدرسية ، فيرسل بها الى الاقارب والاصدقاء لتقضى بينهم فترات قد يبلغ بعضها أسبوعين أو ثلاثة ..

ولما عاد « لازار » مع بولين في تلك الليلة ، صاح والده المسيو « شانتو » قائلاً في ابتهاج :

– أسرع يا « لازار » .. ها هي ذى « لويز » قد حضرت ..
وتقدمت الصبية « لويز » باسمه ، وقبلت « لازار » وان كان كل منهما لا يكاد يعرف الآخر معرفة وطيدة ، لأنها أمضت حياتها في مدرسة داخلية .. بينما أمضى هو حياته – حتى ذلك الصيف – في مدرسة الليسيه ، ولم يكونا يلتقيان الا في هذه الفترة من العطلة السنوية ، وكان « لازار » لا يحب الاختلاط بها كثيراً لأنها لم تكن بدورها تحب الألعاب الصبانية أو التجاوب معه في شيء ، فضلاً عن محاولاتها الدائمة للفت الانظار اليها ..

وقالت مدام « شانتو » وهي تنظر الى « بولين » :

– حسناً يا « بولين » .. ألا تنوين تقبيل « لويز » ؟ .. انها اكبر منك بعام ونصف ، وانا احب ان تكونا صديقتين ..

ونظرت « بولين » الى « لويز » التي وقفت بجسمها النحيل وملامحها الجذابة – وان لم تكن متناسقة – وشعرها المعقوص كأنها فتاة بالغة ، وكانت « بولين » قد شحب وجهها حين رأت عناق « لويز » لـ « لازار » وتقبيلها له .. وتقدمت « لويز » وقبلت « بولين » .. فردت القبلة بشفتين مرتعدتين – وبشئ واضح من البرود – مما جعل مدام « شانتو » تقول :

– ماذا بك يا « بولين » .. ؟ هل تشعرين بالبرد ؟!

فاضطرم وجه الطفلة وهي تكذب قائلة :

– نعم .. بعض الشيء .. ان الهواء بارد ..

ولم تأكل « بولين » شيئاً في وجبة العشاء ، وانما راحت تنتقل بنظراتها من وجه عمها الى وجه « لازار » الى وجه عمتها مدام « شانتو » ثم الى وجه « لويز » .. وكانت نظراتها تتألق بالانفعال المكبوت كلما رأت الجميع يولون اهتمامهم لـ « لويز » .. ولكن الذي أتعسها وأحزنها أكثر من أى شيء ، أنها رأت الكلب « ماتيو » وهو يقبل على « لويز » ويداعبها في ابتهاج ويضع رأسه على ركبته .. وعبثاً حاولت أن تستدعيه اليها ، لان « لويز » كانت تقدم اليه قطع السكر ، الواحدة بعد الاخرى

واختفت « بولين » حين نهض الجميع عن المائدة .. ولم تلبث « فيرونিকা » ان أقبلت على الاسرة وهى تقول بلهجة المنتصر :

– تعالوا وانظروا ماذا تفعل « بولين » – التى تحسبونها ملاكا صغيرا – فى المطبخ؟!!

وأسرع الجميع الى المطبخ حيث فوجئوا برؤية الصغيرة « بولين » وهى تنهال على رأس الكلب « ماتيو » بكل ما فى قبضتى يديها من قوة . وكان الكلب يتحمل ضرباتها فى صمت واستسلام ، وبدون أية محاولة للدفاع عن نفسه !

وبلغ من هياج اعصاب الطفلة انها راحت تضرب الهواء بيديها وقدميها عندما حملها « لازار » بين ذراعيه بعيدا عن المطبخ .. ولما وضعها فى فراشها ، ظلت حتى منتصف الليل وهى فى شبه اغماء ، وعمتها مدام « شانتو » جالسة بجوارها .. وأخيرا استسلمت للنوم ..

وقالت « فيرونিকা » فى لهجة المتهمك بعد أن وجدت أخيرا عيبا فى هذه « الجوهرة » الصغيرة :

– انها لطيفة جدا .. أليس كذلك؟! .. انها ملاك صغير ؟
وقالت مدام « شانتو » :

– لقد قيل لى فى باريس انها سريعة الغضب ، وأنها شديدة الغيرة .. ولكننى لم أكن أتوقع أن تصب غضبها على رأس هذا الكلب المسكين

ولكن « بولين » أسرع فى اليوم التالى وأخذت تعانق الكلب « ماتيو » ، وتمطره بالقبلات وهى تدرف الدموع .. ولما عاتبتهاعمتها على ما فعلت ، ألقت بنفسها بين ذراعيها وقالت باكية :

– اننى أحبكم بكل قلبى ، فلماذا تحبون غيرى؟!!

وظلت « بولين » تعانى الغيرة من وجود « لويز » .. لا سيما عندما كانت هذه تحاول دائما اجتذاب « لازار » اليها .. ولم تهدأ نفسها الا عندما أعلن « لازار » أنه قرر الرحيل الى باريس لدراسة الطب

الفصل الرابع

المشروع الكبير

وأخذت شهور العام الدراسي تمر بطيئة متشاقلة ، وبقيت « بولين » في البيت بعد أن كان مقدرًا أن تذهب إلى مدرسة داخلية في « كان » ، لأن عمها « شانتو » قال أنه لا يستطيع احتمال نوبات مرضه دون أن تكون بجانبه . . ومن ثم تطوعت مدام « شانتو » بتعليم « بولين » في البيت كل ما كان يمكن أن تتعلمه في المدرسة

ومرت الأيام في يسر وسعادة ، لاسيما عندما أرسل الشريك « دافوا » مبلغ خمسة آلاف فرنك ، قائلا أنها نصيب « شانتو » في أرباح الشركة في ذلك العام . واعتقد الجميع أن « بولين » قد جلبت معها الحظ الحسن ، وأن أيام الفاقة والعسر قد مضت إلى غير رجعة !

ولما استلمت مدام « شانتو » أرباح الأوراق المالية الخاصة بالصغير « بولين » سعدت معها إلى الطابق الثاني ، ودخلت غرفة نومها ، وفتحت الدرج المودعة به الأوراق المالية وقالت لـ « بولين » :
- انظري يا عزيزتي . . اني أضع هذه الأرباح فوق ثروتك ، وهاهي تنمو وتزداد . . وعندما تكبرين ، سوف تجدنيها مضاعفة . . وفي ذات صباح جميل من شهر أغسطس ، عاد « لازار » قبل مواعده بأسبوع ، وأعلن أنه اجتاز امتحان الفصل الأول بنجاح . . وسعدت الأسرة بهذا النبأ ، وازدادت سعادتها عندما راح « لازار » يتحدث عن دراسته الطبية دون أن يشير بحرف واحد إلى الموسيقى ، وكان في حديثه يؤكد أنه كرس نفسه ليفدو طبيبًا عالميًا . .

وأمضت الصغيرة « بولين » شهور الصيف مع « لازار » سعيدة هائلة ، فكانا يلعبان معا على الشاطئ ، ويسبحان ، ويتجولان سيرا

على الاقدام الى الاماكن النائبة ، ويقضيان الساعات الطوال في تلك البقعة المنعزلة التي سماها « الشاطيء الذهبى » . . وفي المساء ، كانت الاسرة تقضى فترات سعيدة في مختلف ألعاب التسلية ولما أزف موعد عودة « لازار » الى باريس في أول شهر أكتوبر دهشت « بولين » حين رأته يضع جميع كتبه المدرسية مع حاجياته في حقيبة السفر الكبيرة ، ولما سألته عن سبب أخذه هذه الكتب التي لم يفتحها يوما طيلة العطلة الصيفية ، قال :

– اننى سأحتاج اليها بطبيعة الحال لاستكمال دراستى ، ويجب أن أجتاز كل عقبة لكى أحقق آمالى



واستأنفت الاسرة حياتها العادية في بونفيل . . وأخذت الايام تمر في هدوء وسلام ، لا يقطع هدوءها الا النوبات التي كانت تهاجم العجوز « شانتو » وتجعل جو البيت مفعما بأهات توجعه وصيحات آلامه . وكانت البلدة قد تعرضت ثلاث مرات لمد البحر الربيعى ، وتحملت في كل مرة بعض الخسائر فى الاراضى والمنازل . وكان الاب « هورتير » راعى الكنيسة ، يأتى بين الحين والآخر ليلعب الشطرنج مع العجوز « شانتو » وكذلك كان الدكتور « كازينوف » يأتى كالمعتاد كل يوم سبت ليتناول طعام العشاء ، وليطمئن على حالة صديقه « شانتو »

على أن ذلك العام لم يكن مليئا بأسباب السعادة والرخاء كالعام السابق . اذ أعلن الشريك « دافوا » ان الشركة خسرت مبلغا كبيرا قد لا يتيسر تعويضه فى عدة سنوات . أما « لازار » فقد عاد من باريس ، ساخطا لاعنا الحظ ، قائلا انه رسب فى الامتحان ، وانه اصبح شديد الكراهية لدراسة الطب ، وان الاطباء جميعا لا يستطيعون شفاء مريض بالنقرس مثل أبه ، وانه قرر دراسة العلوم الكيماية ، لان هذه العلوم كفيلة بتحويل التراب الى ذهب !

وأقبلت الفتاة « لويز » فى منتصف شهر سبتمبر لتقضى أسبوعين فى ضيافة الاسرة . . وكانت قد أصبحت – وهى فى الرابعة عشرة – عادة هيفاء تقترب من مرحلة النضج الانثوى . ولكن « لازار » لم يكن يعيرها أو يعير « بولين » اهتماما كبيرا بسبب تفكيره المتواصل

في دراسته الجديدة ، دراسة العلوم الكيمائية التي كان واثقا انها
ستحول التراب بين يديه الى ذهب !
وفي الليلة السابقة لعودته الى باريس ، اظهر من الابتهاج والسرور
بهذه العودة ما جعل « بولين » تقول له عاتبة :
- يبدو أنك لم تعد تحبني !؟

فقال لها ضاحكا :

- لا تكوني حمقاء ، فان على ان اشق طريقى للنجاح والشراء ،
وهذا هو المهم في الوقت الحاضر . .
ولم يسع الفتاة الا أن تبسم

وفي خلال هذا العام ، بلغت « بولين » مرحلة النضج الانشوى ،
ومرت هذه الفترة العصبية بسلام تحت اشراف الدكتور « كازينوف »
ورعاية مدام « شانتو » . . ولكن « بولين » بدأت تشعر بالرغبة
الشديدة في أن تعرف عن نفسها ، وعن جسدها النامى كل شىء .
ولما عثرت ذات يوم على بعض كتب « لازار » الطبية التي تركها
بالبيت ، اخذت تتصفحها اولا بدافع الفضول ، ثم اذ هي تنتهز كل
فرصة ممكنة للانفراد بنفسها والاطلاع على هذه الكتب التي كانت
تحتوى على الشىء الكثير من مبادئ التشريح ووظائف الاعضاء ،
وانواع الامراض ووسائل علاجها

وأقبل « لازار » في المعطلة التالية مهتاجا متحمسا لا يكف عن
الحديث عن المشروع الضخم الذي قرر أن يقوم به . ولو بذل في
هذا السبيل كل قطرة من دمه . .

قال انه تتلمذ في باريس على يدى استاذ عالم هو البروفسور
« هيربلين » ، الذى تخصص في دراسة النباتات البحرية وكيفية
استخراج الاملاح الطبية والمعدنية منها ، واستطرد « لازار » في
حديثه الحماسى للاسرة قائلا انه وضع تصميمات مصنع كبير يمكن
اقامته بالقرب من بونفيل لاستخراج النباتات البحرية الكثيرة في تلك
المنطقة ، واستخلاص الاملاح المعدنية منها وتوزيعها على مختلف
شركات الادوية بأسعار ليس لها مثيل

وكانت الاسرة - في اول الامر - تعتقد انه غير جاد في أحاديثه

هذه ، ولكنها فوجئت ذات يوم بحضور رجل يدعى « بوتيني »
يسنفل بتقطير الخمر . . وقد راح هذا الرجل يؤكد للأسرة أن
المشروع الذى يفكر فيه « لازار » من أحسن المشروعات الاقتصادية،
وأنه مستعد أن يدفع نصف التكاليف التى تبلغ ستين ألف فرنك
إذا قبل « لازار » أن يدفع النصف الآخر . . وانه سترك له الحق
الكامل فى ادارة المصنع ، وسيكتفى هو بعمليات التوزيع . . ثم أكد
لمدام « شانتو » أنها إذا كانت تريد أن يصبح ابنها « لازار » من
الاثرياء فى بضع سنوات ، فان الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا الامل
وكان طبيعياً أن تنضم مدام « شانتو » الى ابنها وشريكه ، مادام
الامر يتعلق بالشراء العاجل . وهكذا عقدت الأسرة اجتماعاً خطيراً
لبحث الموضوع من جميع جوانبه ، وفى هذا الاجتماع قالت مدام
« شانتو » :

– ان مستقبل ابنى فى الميزان ، ونحن اذا لم نتأزر لنحقق اماله
فى هذا المشروع فمن المحتمل جداً أن تؤثر هذه الصدمة فى حياته ،
فيملاً اليأس نفسه . .

وقال الوالد « شانتو » :

– ولكن . . من أين لنا أن نقدم اليه ثلاثين ألف فرنك ؟

فردت مدام « شانتو » قائلة :

– لقد فكرت فى أن ألجأ الى والد « لويز » ليقرضنا هذا المبلغ ،
وقد علمت أن « لويز » متوقعة الصحة ، وسوف اذهب لاحضارها،
ثم أفتح أباها بعد ذلك فى الامر . .

وزمت « بولين » شفيتها وهى جالسة فى الناحية المقابلة من
المائدة ، وتلكأت « فيرونিকা » قليلاً وهى تمسح سطح المائدة بعد أن
رفعت أدوات الشاي ، وكأنما أرادت أن تنصت الى ما ستقوله
مدام « شانتو » بعد ذلك . .

ولم تلبث السيدة أن استطرقت قائلة :

– وكنت قد فكرت فى وسيلة أخرى ، ولكننى أخشى أن يسئ
أحد فهم مقصدى . . ذلك أن المشروعات الصناعية لا تخلو من
احتمالات الخسارة . ولهذا رأيت ألا ألجأ اليك ياعزيزتى « بولين »
لكنى تقرضى ابن عمك المبلغ ، وذلك رغم أن نصيبك من ارباح المشروع

سيكون مضمونا . والواقع أنني سوف اشعر بالحزن الشديد اذا رأيت الارباح الطائلة تذهب الى جيب المسيو « ثيودير » - والد « لويز » - بدلا منك ..

وشحب وجه « بولين » اذ كانت تعاني في تلك اللحظة صراعا نفسيا عنيفا بين طبيعة الحرص التي ورثتها عن أبيها التاجر ، وبين رغبتها في ارضاء الاسرة التي رحبت بها وقبلت أن تجعلها ابنة لها . ولما رأَت مدام « شانتيو » ترددها ، قالت :

- ولكن حتى اذا قبلت أنت ياعزيزتي « بولين » فلن أقبل انا .. ان ضميري لايسمح بتعريض جانب من ثروتك للخسارة ، وان كان هذا الاحتمال بعيدا جدا ..

وقال العجوز « شانتيو » وهو يحاول تحريك ساقه متوجعا :
- ان مالها من حقها .. واذا حدثت أية خسارة ، فسوف نكون نحن المسئولين عنها ، لا .. لا .. الافضل ان نلجأ الى « ثيودير » . ولاشك أنه سيرحب جدا بهذا المشروع

ولكن « بولين » انفجرت قائلة بعد أن تغلبت الرغبة في ارضاء الاسرة على طبيعة الحرص الموروثة :

- لا .. لا .. يا عمتي .. دعيني أقرض المبلغ لابن عمي «لازار» .. أليس هو بمثابة أخ لى .. وهل يليق أن أرفض اقراضه بينما يقبل المسيو « ثيودير » هذا ؟ .. أرجوك يا عمتي ان تقدمي ل « لازار » ما يريد من مال ، حتى بدون اذن منى ..

وكانت الفتاة تتحدث والدموع تتألق في عينيها ، ويبدو أنها شعرت بالخجل من ترددها في تقديم القرض منذ اللحظة الاولى .. ولكن عمته بسطت ذراعيها اليها في حرارة وترحيب وقالت :

- اذن تعالى وقبلى عمتك الحبيبة ياعزيزتي .. انك فتاة رائعة ، ولسوف يسر « لازار » أن يقبل القرض مادمت تصرين على هذا ، وثقى أن هذا المبلغ سوف يتضاعف في سنوات قليلة

ولما فرغت « بولين » من تقبيل عمته ، قال عمها :
- ألا تقبليننى أنا أيضا ؟

وتبادل الجميع القبلات المترجحة بالدموع . أما « فيرونيسكا » فقد علقت على ماحدث بقولها لنفسها :

– ان هذه الفتاة لا تتردد في التبرع بقميصها حتى لا تسيح
الفرصة لوالد « لوز » ان يطوق أعناق الاسرة بأفضاله ..
وأقبلت « لوز » – بعد أسبوع – لقضاء فترة من عطلة الصيف
بين أفراد الاسرة ، ولكن « لازار » لم يولها من الاهتمام قدر ما كان
يولى ابنة عمه « بولين » التي كان يدعوها دائما باسم « شريكتي
العزيزة »

وفي ذات ليلة ، قال لها وهما يفترقان عند مخادع النوم :
– اعتقد يا شريكتي اننى لا استطيع ان اقبلك قبلة المساء بعد أن
كبرت وأصبحت فتاة ناضجة ..
ولكنها ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وطبعت على شفثيه قبلة حارة
وهى تقول :
– اننى لن أكبر أبدا بالنسبة لك يا « لازار » ..



الخطبة ..

قرر « لازار » ان يقيم مصنع الكيماويات البحرية في نفس البقعة القريبة من بلدة بونفيل ، وهى البقعة المنعزلة التى كان يسميها مع « بولين » الشاطئ الذهبى .. وذلك تيمنا بهذا الاسم ..

أليس من المنتظر أن يمطرهما المصنع بالذهب ؟ !

وكان « لازار » قد أمضى أسابيع طويلة فى عمليات تحليل مختلف النباتات البحرية التى تكثر فى المنطقة ، والتى لم يكن من المنتظر أن ينضب لها معين مهما بلغ استهلاك المصنع لها .. وطبقا لهذه التحليلات، صمم الاجهزة والادوات والآلات اللازمة لاستخراج مختلف الاملاح المعدنية وتعبئتها .. وفى الوقت الذى كانت تعد فيه هذه الاجهزة والآلات فى باريس ، كان هو وشريكه « بوتينى » يشرفان على اقامة مبنى المصنع فى المنطقة المختارة . وكان يذهب الى مكان البناء كل يوم مع « بولين » ثم يعودان فى المساء حيث يسمعان هذه العبارة التقليدية من أحد الوالدين :

– حسنا .. كيف الحال ، هل أنت راض يا « لازار » ؟

فيرد « لازار » قائلا :

– نعم .. نعم .. ولكن ما أطول الوقت الذى تستغرقه اقامة

البناء !

وأقبل شهر أغسطس بأيامه الحارة ، وقرر الشاب « لازار » ذات مساء ان يقضى مع « بولين » اليوم التالى فى السباحة والترويح عن النفس .. ولما كانت الام من الطبقة المحافظة ، فلم تتصور ان تتركهما – على انفراد – ساعات طويلة وهما فى ملابس السباحة ، لذلك رأت أن تذهب معهما ..

وانطلق الجميع - والكلب ماتيو معهم - في صباح اليوم التالي الى منطقة منعزلة على شاطئ البحر .. وهناك جلست مدام «شانتو» مستظلة بمظرفها ، بينما رقد الكلب بجوارها محاولا ان يجعل رأسه في ظلها ..

وقال « لازار » لأمه حين رأى « بولين » تختفى وراء صخرة لتخلع ملابسها وترتدى ثوب السباحة :

- عجبا ؟ .. الى أين ستذهب بولين ؟ ..
فقالته أمه :

- انها ستخلع ملابسها طبعاً .. يحسن أن تستدير بوجهك حتى لا تخرجها ، ان النظر اليها لا يليق ..

وشعر « لازار » في تلك اللحظة أن ما بينه وبين « بولين » لم يعد مجرد عواطف أخوية ، وانما عواطف من لون آخر .. ولما أوشكت « بولين » أن تفرغ من ارتداء ثوب السباحة ، قال لها :

- هلم يا « بولين » .. أم لعلك ترتدين الملابس اللائقة بسهرة رسمية .. ؟

وبرزت « بولين » من وراء الصخرة ، وهي تحاول أن تخفى خجلها واضطرابها بضحكة مفتتحة .. فقد أبرز ثوب السباحة مفاتن جسمها المستدير .. ولكن « لازار » حاول أن ينظر اليها وكأنها في ملابسها العادية الكاملة حتى لا يزيد شعورها بالحرج ، ثم قال :

- هل نسبح حتى نصل الى جزيرة بيبكوشيت يا « بولين » ؟
فقالته في ابتهاج :

- نعم .. هلم نتسابق اليها ..

وقالته مدام « شانتو » :

- أرجوك يا « لازار » .. لا تتوغل بها بعيدا حتى لا أبقى هنا نهباً للقلق والخوف ..

ولكن « لازار » و « بولين » كانا قد وثبا الى الماء وانطلقا يسبحان .. وكانت جزيرة بيبكوشيت عبارة عن نتوء صخري يقع على بعد ميل من الشاطئ . وأخذ الاثنان يتسابقان اليها ، بينما تراجع الكلب ماتيو بعد أن حاول اللحاق بهما ، فلما عاد الى مكانه بجانب مدام

« شانتو » قالت :

– انك أعقل منهما .. ولست أدري لماذا يحاولان المغامرة بحياتهما في هذا البحر الهائج ..

وظل السابحان يتعدان حتى لم يعد في مقدور مدام « شانتو » الا أن ترى رأسيهما من بعيد ، كأنهما كرتان صغيرتان تتأرجحان على الموج . وكان الاثنان قد كفا عن التسابق ، وراحا يستمتعان بالسباحة الهادئة .. على أن « لازار » لم يلبث أن سمع صيحة خافتة من « بولين » فقال لها منزعجا :

– ماذا بك يا عزيزتى ؟ ..

– يبدو أن حمالة الثوب قد انقطعت وأنا أبسط ذراعى اليسرى الى مداها .. !

وضحك « لازار » وقال لها :

– لا عليك .. حاولى أن تبخشى فى جيوبك عن دبوس أو ابرة وخيط ..

ولما وصلا الى صخور الجزيرة ، صعد الشاب اليها ، وألقى بجسمه عليها التماسا للراحة .. أما « بولين » فقد بقيت غاطسة حتى عنقها خوفا من أن تصعد الى الصخر فينكشف ثديها بعد أن انزلق طرف الثوب الاعلى عنه .. ولكن « لازار » لم يفهم هذا الموقف ، ومن ثم قال :

– ألا تعتزمين الصعود لتستريحى ؟

فأجابت قائلة :

– لا .. اننى مستريحة هكذا ..

وبعد فترة وجيزة ، انطلق الاثنان فى طريق العودة .. ولكن « بولين » لم تلبث – وهى فى منتصف المسافة – أن شعرت بقواها تخور وتتداعى ، وحاولت جاهدة أن تخفى الامر عن « لازار » .. ولكنه أدرك الموقف الحرج الذى تعانیه ، فقال لها وهو يسرع نحوها :

– ماذا دهاك ؟ .. هل تريدین أن تنتحرى ؟ ..

ولهت أنفاسها قائلة :

– اننى بخير ..

وأسرع « لازار » اليها ، وطوق خصرها بذراعه .. وحاولت هى

أن تقاومه ، ولكنها عجزت في النهاية ، فاستسلمت لذراعه التي ضمت جسدها الى جسده بقوة ، ووصل الاثنان الى الشاطئ على هذا النحو ..

وقالت مدام « شانتو » حين رأت « بولين » تسقط على رمال الشاطئ في اغماء :

– يا للسماء ؟ .. أكان ضروريا أن تتوغلا في البحر كل هذه المسافة ؟ !

وبادر « لازار » الى « بولين » – شبه العارية – واحتضنها بقوة ، وراح يبذل جهده لكي تفيق من اغمائها .. وأخيرا فتحت عينيها ، ورأت وجه « لازار » المليء بالقلق والخوف ، فانفجرت باكيا .. وتعلقت به ، وراحت تمطر وجهه بالقبلات .. وكأنما تركت العنان لنفسها لكي تعبر عن مشاعر حبها المكبوتة ..

وقالت له وهي تلهث :

– آه .. ما أطيبك يا « لازار » .. وما أشد حبي لك ..

وفوجيء الشاب بقوة عناقها له ، وحرارة قبلاتها على وجهه وشفتيه .. ولكنه لم يلبث أن ابتسم وراح يهدىء من ثورة عواطفها وعاد الجميع الى البيت في سكون واعياء .. وكانت مدام « شانتو » تقول لنفسها وهي تسير بين الشاب والفتاة :

– لقد آن أن نتخذ قرارا بشأن زواجهما ..



ولكن الاحداث السريعة التي توالى بعد ذلك ، جعلت مدام « شانتو » تفكر في تنفيذ هذا القرار في أسرع وقت .. ذلك أن المصنع تجاوز في نفقات انشائه وتزويده بالمعدات اللازمة المبلغ المعتمد له . وقد تبين أخيرا أن عمليات الانتاج لا يمكن البدء فيها الا اذا وضعت تصميمات جديدة لبعض الآلات ، ورفض « بوتيني » باصرار أن يدفع شيئا .. ورفض « لازار » باصرار أن يلجأ مرة أخرى الى ثروة « بولين » .. ولكن والدته قالت له انه اذا ترك الامر على هذا الحال .. فسوف يضيع مبلغ الثلاثين ألف فرنك التي اقترضتها .. ومن ثم فانه من الافضل أن ننقد هذا المبلغ بمبلغ آخر وأردفت مدام « شانتو » قائلة :

– ولا تنس يا « لازار » أن مال « بولين » سيعتبر مالك بعد أيام قليلة ؟

فنظر الشاب إليها مدهوشا ، وقال :

– ماذا تعنين يا أماه ؟

– أعنى أن « بولين » ستغدو زوجتك في القريب العاجل ..

وفوجيء « لازار » بهذه الكلمات ، وقال :

– ماذا تقولين يا أماه ؟ .. اننى أكبرها بتسعة أعوام و ..

وابتسمت الام قائلة :

– هل تنكر أنك تحبها ؟ !

فأحنى الشاب رأسه مرتبكا ، وقال :

– لا .. لست أنكر أننى أحمل لها كل حب وتقدير .. ولكن ..

ماذا عن شعورها هى ؟

فغمزت الام بعينيها ، وقالت :

– ألم تعرف بعد حقيقة مشاعرها نحوك ؟

– اننى .. اننى أعرف أنها .. انها تحبنى كأخ أكبر

– حسنا .. انها الآن فى غرفتها بالطابق الاعلى .. انتظر لسوف

أصعد وأتى بها لترى الى أى حد سوف ترحب بزواجك منها ..

وانطلقت الام الى « بولين » فى غرفتها الخاصة .. وما كادت

تفتاحها بلباقة فى موضوع زواجها من « لازار » حتى ألقت الفتاة

بنفسها بين ذراعى عمته ، وأعربت لها بدموعها وقبلاتها عن مبلغ

سعادتها ..

وأدرك « لازار » كل شىء عندما رأى أمه تهبط مع « بولين » الى

حيث كان جالسا فى انتظارهما بغرفة المائدة .. ومن ثم قال ضاحكا

للفتاة حتى يخفف خجلها :

– ها .. اذن سوف نغدو زوجين ..

وأطرقت « بولين » برأسها ، ولاذت بالصمت .. ولكن العجوز

« شانتو » فتح عينيه وقال بعد أن سمع الكلمات الاخيرة :

– ما هذا الحديث عن الزواج ؟

ثم تذكر فجأة ما قالت زوجته له فى الصباح عن هذا المشروع ،

ومن ثم قال متذكرا :

– آها .. نعم .. نعم ..
وقال « لازار » باسمًا :
– ولكنني لم أسمع بعد رأي « بولين » ؟
فقال « بولين » وهي تمد يدها لتصافحه :
– انني أكون سعيدة لو كانت هذه رغبتك ..
وقالت مدام « شانتو » :
– اذن اتفقنا .. والآن ليقبل أحكما الآخر ..
وتقدمت « بولين » ، وقدمت اليه وجهها ، وقبلها « لازار » قائلا :
– ان الامر بالنسبة لك صفقة خاسرة يا عزيزتي .. ولكن ما دامت
هذه رغبتك ، فليكن ما تريد ..



الفصل السادس

الحساب..

وتناول الجميع العشاء في تلك الليلة في جو من السرور والابتهاج والتفاؤل .. وكانوا يتبادلون الحديث عن مشروعات المستقبل ، وكأنما يجتمعون معا لأول مرة . ولما شرعوا في تناول الحلوى والفاكهة، بدأوا يتحدثون عن الجوانب الجادة الخطيرة في حياتهم ، فبدأت الام الحديث بقولها ان الزواج لا يمكن أن يتم قبل مرور عامين على الاقل، لانها تريد ان تنتظر حتى تبلغ « بولين » سن الرشد . وتصبح حرة التصرف في ثروتها وفي حياتها . ولما حاولت « بولين » أن تعترض ، قالت الام انها لا تريد ان يتهمها أحد بالضغط على الفتاة او باستغلال وصايتها للظفر بها زوجة لابنها ، طمعا في ثروتها .. ورغم معارضة « بولين » فانها اعجبت بأمانة « مدام شانتو » وحرصها الشديد على اتباع القواعد والاصول .. ومن ثم نهضت من مكانها وقبلتها قائلة انها لا تستطيع الا أن تطيع رغبات أم فاضلة طاهرة النفس مثلها ..

وتحدد يوم للزواج بعد عامين ، وكان في مقدور الخطيبين أن ينتظرا هذا اليوم بصبر ورضا .. ولماذا لا يصبران وقد رأى « لازار » ان من الاجدى عليه ان يتزوج ابنة عمه بعد ان يظفر بالارباح الاولى من مصنع الكيماويات .. هذه الارباح التي ستجعله مليونيرا في أقرب فرصة !

وأخذا الجميع عندئذ يتحدثون عن المصنع ، وعن المال اللازم للبدء في عمليات الانتاج ، وهنا قالت « بولين » بحماسة :

– خذى من أموالى ما تشاءين يا عمتى .. قدمى لـ « لازار » كل ما يحتاج اليه من المال .. لقد أصبح مالى ماله الآن بطبيعة الحال ..

ولكن مدام « شانتو » احتجت قائلة :

– لا .. لا .. اننا لن نأخذ من مالك فرنكا واحدا أكثر مما ينبغي .. اطمئني من هذه الناحية ، فاني افضل ان اقطع ذراعى اليمنى على ان امد يدي لآخذ شيئاً من مالك بغير وجه حق ..

ثم أردفت قائلة بعد برهة صمت :

– ان « لازار » في حاجة الى عشرة آلاف فرنك اخرى لاستكمال المشروع ، ولن نأخذ أكثر من هذه الآلاف العشرة ثم نترك الباقي في مكانه .. انه مال مقدس في نظري ..

وقال « لازار » :

– اننى واثق من النجاح الكامل اذا حصلت على هذه الآلاف العشرة من الفرنكات .. لقد فرغنا من التكاليف الضخمة ، وحرام أن نخسر المشروع كله من أجل عشرة آلاف فرنك . والواقع اننى أريد أن أفرش الارض بالذهب أمام « بولين » وأن أجعلها ترتدى يوم الزواج ثوباً تحسدها عليه الملكات .. !

وازداد سرور الاسرة بحضور الدكتور « كازينوف » على غير موعد . فقد كان يفحص مريضاً في مكان قريب ، فرأى أن يعرج على بيت صديقه « شانتو » .. ولما علم نبأ الخطبة لم يبد عليه الكثير من الاندهاش ، وكأنما كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل .. ولكنه قال حين رأى حماسة الجميع بشأن مشروع مصنع الكيماويات :

– ان هذا المشروع لا بأس به ، وهو قائم على فكرة جيدة .. ومن الواجب أن يبذل الانسان جهده لاجراجه الى حيز التنفيذ .. ثم نظر الى « بولين » وأردف قائلاً :

– ولكن لو كان المال مالى ، لفضلت عليه الاسهم والسندات ، لانها اضمن ربحاً واخسارة فيها أقل احتمالاً .. اننى افضل عادة الارباح القليلة المضمونة على الارباح الكثيرة المعرضة للضياع في أية لحظة

وتوقف فجأة حين رأى ظللاً من القلق والاضطراب تطوف بوجه « بولين » .. ولما كان قد شعر بالعطف الشديد على الفتاة منذ جاءت للإقامة مع الاسرة فقد رأى الا يستطرد في حديثه حتى لا يزيد من شعورها بالقلق .. لذلك حول مجرى الحديث الى ذكرياته عن الاماكن العجيبة التى زارها أثناء اشتغاله طبيباً بحرياً ..

وأخذت الشهور تمر تباعا . . وبدأ المصنع في عمليات الانتاج ، ولكن ظهر أن تكاليف الانتاج تزيد كثيرا عن أسعار المنتجات المماثلة المعروضة في الاسواق . . وأخذ « لازار » يعيد تصميم الآلات ، ويجرى التجارب المرة بعد الاخرى . . وفى كل مرة كان الامر يحتاج الى مزيد من آلاف الفرنكات حتى اصبح المصنع أقرب الى فوهة اتون كل همها أن تلتهم الاوراق المالية دون أن تنتج الا رمادا . . !

وظلت « بولين » تتعاون مع الاسرة في تزويد المشروع بكل احتياجاته المالية ، وكانت مدام « شانتو » فى أول الامر لا تأخذ شيئا من أموال « بولين » الا باذن منها ، وأمام عينيها ، وكانت مثلا تقول لها :

— علينا يا عزيزتى ان نسدد بعض الكمبيالات . . ونحن فى حاجة الى ثلاثة آلاف فرنك . . هلم اصعدى معى لنختار الاسهم التى نبيعها وكانت الفتاة تقول عادة :

— ولكن الا يمكنك يا عمتى ان تختارها بنفسك ؟
فترد العمه قائلة :

— لا يا عزيزتى . . ان المال مالك ، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا بغير اذن منك . .

ولكن مدام « شانتو » لم تلبث ان تخلت عن هذه العادة . . ذلك أن « لازار » صارحها ذات يوم أنه مدين بمبلغ خمسة آلاف فرنك ، ثمن انابيب نحاسية لم تصلح للاستعمال ، وأنه أخفى أمر هذا الدين عن « بولين » . . وحدث فى صباح ذلك اليوم نفسه أن الأم كانت قد قامت بزيارة لدرج الاوراق المالية مع « بولين » . ومن ثم لم تستطع أن تطاب منها القيام بزيارة أخرى فى نفس اليوم . . ولما كان الابن العزيز فى أشد الحاجة الى تسديد الدين فى ذلك اليوم والا أشهر افلاسه ، فان الام لم يسعها الا أن تقوم بزيارة درج الاوراق المالية بمفردها فى هذه المرة . .

وأقنعت مدام « شانتو » نفسها بأنها سوف تعيد هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات الى مكانها بمجرد أن تتسلم الارباح الاولى من المصنع . . ولكن الذى حدث أنها أخذت تتردد على درج الاوراق المالية بمفردها كلما ضاقت الامور واحتاجت الى مزيد من المال . وفى كل مرة كانت تشعر بشيء من الغضب والثورة نحو صاحبة المال . .

وكانما تجد في هذا الغضب تنفيسا عن شعورها الخفى بالذلة التي جعلتها تتسلل الى درج الاوراق المالية ، وتأخذ مالا لا حق لها فيه ! وكان الواضح أن « بولين » لم تكن غافلة عن هذا كله .. وكثيرا ما كانت تتبادل مع عمته نظرات لها معناها .. نظرات القلق من ناحيتها ، ونظرات السخط والتحدى من ناحية عمته .. وكانما هذه تقول لها : « ماذا نستطيع أن نعمل ؟ .. هل نترك الدائنين يوقعون الحجز على البيت ويطردوننا منه ! »

ومما زاد الامر سوءا انها تلقت ذات يوم من الشريك « دافوا » اخطارا يعلنها فيه بأنه افلس ، وأن الديون التي على الشركة سوف تستهلكها .. ورغم أن الاسرة كانت تتوقع هذه الكارثة الا انها شعرت بفداحتها بعد أن فقدت كل أمل في الحصول على دخل سنوي آخر فوق الثلاثة آلاف فرنك الثابتة

ولما كان هذا الدخل السنوي يصل اليهم اقساطا شهرية بمعدل مائتين وخمسين فرنكا في كل شهر ، فان مدام « شانتيو » وجدت نفسها في حاجة الى نقود للانفاق على البيت قبل أن ينتهي الشهر بعشرة أيام . وكانت المبالغ الصغيرة التي « تقترضها » من « درج الاوراق المالية » تصل احيانا الى مائة فرنك لتسديد اقساط غلاية الغسيل ، وتهبط احيانا الى عشرة فرنكات لشراء البطاطس والسمك .. وقد بلغ بها الامر انها اخذت تزود « لازار » يوميا بمبالغ صغيرة لنفقاته اليومية ، ومبالغ كبيرة لتسديد ديونه

وهكذا أصبح « درج الاوراق المالية » ماثرا لعذابها النفسى بعد أن كان رمزا لثراء الاسرة واستقرارها المالى .. ! وفي ذات يوم ، اقبلت « بولين » من الردهة الخارجية للبيت ، وقالت لعمتها :

— لقد جاء الخباز .. انه يطالب بثمن خبز ثلاثة أيام ، ثلاثة فرنكات ..

وبحثت مدام « شانتيو » في جيوبها ، ثم قالت :

— آه .. لا بد أن أصعد لآتى له بالنقود من الطابق الثانى ..

فقالت « بولين » ببراءة :

— لا داعى لأن تتعبى نفسك .. لسوف أصعد أنا .. أين وضعت

كيس نقودك ؟ !

فهمت السيدة قائلة بسرعة :

– لا .. لا .. انك لن تستطيعي العثور عليه .. فأنا لا أتذكر أين وضعته ..

وتلعثمت العمة ، وتبادلت الاثنتان تلك النظرة التي تجعل وجه كل منهما يشحب .. وبعد برهة من التردد ، صعدت مدام « شانتو » وهي تكبت شعورها بالفضب ، وقد أدركت أن الفتاة تعرف الى أين هي ذاهبة للحصول على الفرنكات الثلاثة ..

ولما هبطت ودفعت للخباز المبلغ الزهيد ، أعربت عن غضبها بقولها لـ « بولين » بصوت حاد :

– ما هذا يا « بولين » ؟ لقد أفسدت ثوبك ؟ . ماذا كنت تفعلين ؟ هل كنت تروين حديقة المطبخ ؟ .. ألا يمكن أن تتركي مثل هذه الاعمال لـ « فيرونیکا » ؟ يا الهى .. انك تتعمدين هذا .. انك لا تعرفين ان المبلغ الذى تدفعينه لاقامتك لا يكفى ، مما يجعلنى عاجزة عن موازنة ميزانية البيت

ولم تستطع « بولين » أن تستمع لكثر من هذا ، فاندفعت هاربة الى المطبخ حيث راحت تبكى بحرارة . ولم تقل « فيرونیکا » شيئاً ، لأنها أبت أن تنحاز الى أحد الطرفين ، ولكنها أخذت تعرب من سخطها بضرب الاوعية بعضها ببعض ، وان كانت فى قرارة نفسها قد بدأت تعطف على الفتاة وتشعر بمدى ماتتعرض له من ظلم !

وظلت حالة المصنع تتدهور من سوء الى أسوأ .. حقا لقد استطاع « لازار » أن يستخرج الاملاح المعدنية الطبية من النباتات البحرية ، ولكن عملية استخراجها كانت تتكلف من النفقات ماجعل أسعارها أكثر ارتفاعا من مثيلاتها المعروضة فى الاسواق . ومسع توالى الخسائر ، أخذت أعصاب « لازار » تضرب .. وبدأ الشعور بالخيبة والسأم ينساب الى نفسه . وأخيرا أعلن للأسرة أنه فشل فى مشروعه ، وأنه لم يعد يطيق احتمال المزيد من الخسائر . وجاء فى وقت الغداء – ومعه قائمة طويلة مليئة بالارقام – تبين منها أن المبالغ التى « اقترضها » من ثروة « بولين » قد ارتفعت الى مائة الف فرنك ، أى لم يعد باقيا من الثروة غير ثمانين ألف فرنك . وقد

قال « لازار » انه لا يستطيع الاستمرار في المشروع خوفا من أن تزيد الخسائر حتى تستهلك الثروة كلها ..

وشحب وجه الام حين علمت بفداحة الخسارة ، وانطلقت « فيرونیکا » الى المطبخ وأغلقت بابه عليها حتى لا يسمع أحد عبارات الغضب والسخط التي أخذت تصبها على رأس هذه الاسرة ، وتظاهرت « بولين » بأنها فرغت من تناول الطعام ، ونهضت لتساعد « فيرونیکا » على رفع أدواته من المائدة الى المطبخ ، وصعد « لازار » الى غرفته بالطابق الثاني حيث أغلق على نفسه الباب ، لينفرد بآلامه وأحزانه بعيدا عن هذا العالم الذي لا يقدر مواهبه ..!

وقال الوالد وهو لا يخفى دهشته وجزعه :

– اننى لم أكن أتوقع أن تبلغ الخسائر هذا الحد .. مائة ألف فرنك ؟ انها ثروة كاملة .. ياللهول !

فقالت الام بلهجة الواثق من نفسه :

– انها ستسترد مالها كله .. ومادام ابنا سيتزوجها ، فسوف يعوضها بدل المائة ألف ، مئات آلاف .. انه عبقرى وقادر على أن يغدو من الاثرياء فى أقصر وقت ..!

ولكن الابن العبقرى لم يلبث أن باع نصيبه فى المصنع لشريكه « بوتينى » نظير خمسة آلاف فرنك ، تدفع على أربعة أقساط .. وقد اعتبر « لازار » نفسه الرابع فى هذه الصفقة ، مؤمنا بأن خسائر « بوتينى » لن تقف عند حد ..

ولكن « بوتينى » – بعد أن انفرد بملكية المصنع – لم يلبث أن عدل تصميمات الآلات ، وراح ينتج الاملاح المعدنية بالطرق القديمة المألوفة .. وماهى غير أشهر قليلة حتى بدأ يجنى أرباحا طائلة .. وبدأت نوازع القلق تنوش قلب العجوز « شانتيو » الذى اصبح مقعدا تماما بسبب داء النقرس .. كان لا يكف عن التفكير فيما يفعل عندما يطالبه المسيو « ساكارد » نائب الوصى ، والمراقب على الوصاية ، بالحساب .. كيف سيبرر له انفاق مائة ألف فرنك من مال الفتاة القاصر؟! حقا ان أحدا – سواء كان « ساكارد » أو غيره – لم يحاول أن يتدخل فى شئون الفتاة خلال السنوات الثمانية المنصرمة .. ولكن حدث ذات يوم أن أرسل « ساكارد » خطا بابا

يقول فيه انه سيذهب الى مدينة « كان » لقضاء مهمة ما ، وانه سينتهر هذه الفرصة ليزور الاسرة ويطمئن على احوال « بولين » . .
وأدركت مدام « شانتو » ان المسيو « ساكارد » يقصد من هذه الزيارة أن يرغمهم على تقديم كشف حساب عن أموال القاصر . . .
وخطر لها أن هذا الرجل الثعلبي قد عرف شيئا عن الاموال التي ضاعت في مشروع « لازار » لاستخراج الاملاح المعدنية من النباتات البحرية . ولعل أحدا قد وشى اليه بأن هذه الاموال الضائعة أخذت من ثروة القاصر « بولين » !
فماذا تفعل؟! . . .

لقد استبد الاضطراب بها وبزوجها . . وتصورا مبلغ الفضيحة التي سوف تتعرض لها الاسرة في جميع انحاء المنطقة اذا شاع أن آل « شانتو » قد بددوا أموال الفتاة القاصر التي تقيم بينهم . .
ولاشك أن مثل هذه الكارثة سوف تجعل أفراد الاسرة جميعا لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم امام احقر صعلوك في المنطقة
وقالت مدام « شانتو » في النهاية ، وهي جالسة بمفردها مع زوجها :

— اننى لن اهتم بأحد . . حقا ان « بولين » لم تبلغ بعد الثامنة عشرة ، ولكن يجب أن يتم زواجها من « لازار » فورا . . لان المرأة المتزوجة لا تكون قاصرا بحكم القانون

فسألها « شانتو » قائلا :

— هل أنت واثقة من هذا ؟

— نعم . . لقد قرأت هذه الفقرة فى القانون صباح اليوم

وكانت مدام « شانتو » فى الآونة الاخيرة تقرأ القوانين المتعلقة بالوصاية ، حتى تجد مخرجا مما وقعت فيه . .

الا أنها لم تلبث أن ترددت فى أمر اتمام الزواج . . وكانت « بولين » بعد الكارثة المالية تحاول ان تتعجل الزواج لكي يصبح مالها مال « لازار » فى نفس الوقت . . وكانت ترى انه لاداعى لان تنتظر ستة أشهر أخرى حتى تتم الثامنة عشرة . . ولكن مدام « شانتو » كانت تريد أن يحصل ابنها على عمل يتكسب منه حتى لا يقال ان « بولين » الفنية تزوجت من ابن عم عاطل طامع فى ثروتها . ولم

تجرات « بولين » ذات يوم وفاتحت عمتها في امر الزواج ، انفردت هذه بها في غرفة مغلقة ، وهمست لها - كاذبة - بأن « لازار » يشعر بأشد الحرج ازاء هذا الموقف ، وانه يكره الاقدام على الزواج بها قبل أن يقدم اليها ثروة مناسبة .. ودهشت الفتاة ، وقالت لعمتها ان الحب عادة لا يقيم وزنا لمثل هذه الامور .. وحتى لو انتظرت ان يقدم اليها « لازار » ثروة ، فمتى يتم هذا .. ان من المحتمل ألا يتمكن « لازار » - في يوم ما - من أن يجمع ثروة مناسبة . ولكن عمتها اكدت لها أن هذا هو رأى « لازار » ثم جعلتها تقسم على أن تجعل هذا الحديث سرا بينهما خشية أن يفرض « لازار » اذا علم به ، ولا يعود الى البيت الا ثريا أو محطما تماما

واقسمت « بولين » ان تتكتم أمر هذا الحديث .. ولكنها لم تستطع أن تتحرر من الشعور بالقلق ، ومن ارغام نفسها على الانتظار في سكون واستسلام ..

وفي الوقت نفسه ، كان « شانتو » يسأل زوجته كلما استبد به الخوف من زيارة « ساكارد » قائلاً :

- لماذا لا تعجلين بزواج « بولين » من « لازار » ؟!

وكانت تقول له دائما :

- لاداعى للعجلة .. ان الخطر ليس محققا ..

- ولكن مادمت قد وعدت كلا منهما بالزواج من الآخر ، فأرجو

الا تكونى قد غيرت رأيك ، والا أصيب الاثنان بصدمة قاتلة ..!

- صدمة قاتلة؟! .. ان الحب لا يقتل .. وطالما أن شيئاً ما لم

يتم ، فمن الممكن أن يبقى بلا اتمام .. ومع ذلك ، فيجب أن نفسح

لهما المجال لحرية الاختيار .. فلعل أحدهما يعدل عن هذه الفكرة

بعد بضعة أشهر ..

واستأنفت الاسرة حياتها العادية ، وأقبل شتاء آخر ثقيل الوطأة

جعل « لازار » يضطر للبقاء في البيت أسابيع متوالية . وكان يتجول

في أنحائه مكتئباً ، ملولاً ، لا يدري ماذا يفعل . وفي بعض الاحيان ،

كان يفاجىء الاسرة بمشروعات خيالية جديدة يرى أنها كفيلة بتحقيق

آماله في الثراء العاجل .. وكان يعكف على دراسة كل مشروع بضع

ليال ، ثم لا يلبث أن يتملكه السأم ، فيعود الى التجوال في أنحاء

البيت على غير هدى ..

ومما زاد من اضطراب « بولين » وشعورها بالقلق أنها اكتشفت ذات يوم أثناء حديثها مع « لازار » انه متأثر بفلسفة شوبنهاور التشاؤمية وأنه يؤمن بأن كل شيء مصيره الى العدم ، وانه لا يخاف من شيء في الدنيا قدر خوفه من الموت .. وقد استبد به هذا الشعور بالخوف حتى جعل حياته جحيما لا يطاق !..

واستطاعت « بولين » بالصبر والاحتمال أن تصرف ذهنه تدريجيا عن فكرة الموت ، وذلك بأن كرست أوقاتها لملازمته ، واللعب معه ، كأنهما طفلان صغيران ، في غرفة « لازار » الكبيرة المليئة بمختلف الأشياء . وقد بلغ الامر انهما كانا يقضيان أحيانا يوما كاملا في هذه الغرفة ، يعزفان على البيانو ، أو يقرآن القصص والروايات ، أو يعيدان النظر في النماذج النباتية المستخرجة من البحر ، والتي كان « لازار » قد جاء بها ليفحصها بالمجهر عندما كان مشغولا بمشروعه الكبير .. وعاد « لازار » الى شغفه السابق بالموسيقى ، وقرر ان يغدو مرة أخرى موسيقارا عالميا ، وعاد الى سيمفونيته « جنة الارض » ليستكملها .. ثم خطر له ان يضع في نهايتها « مارش الفناء » . واخذ يتصور المخلوقات البشرية وهي تواجه يوم القيامة ، ثم يحول تصوراتهِ الى نغمات عنيفة حيناً ، نائرة حيناً ، خزينة مولولة في كل الاحيان .. وأخذت « بولين » تشجعه دون أن تفهم شيئاً من اللحن الا أنه يكاد يثقب أذنيها من فرط عنفه وضجيج نغماته .. وقال « لازار » انه استطاع أخيراً ان يضع قطعة موسيقية سوف يهتز لها العالم بأكمله

وأخذت نزعات التشاؤم تهدأ رويداً في نفس « لازار » وبدأت تحل محلها مشاعر الرغبات الجنسية ، لاسيما كلما تلامست يدها بيدي « بولين » او شعر بأنفاسها على وجهه ، او احس بصدرها النافر يلمس ظهره وهي منحنية عليه لامر ما .. وقد حدث ذات يوم أن كان يطاردها - أثناء لعبه معها - حتى اذا أمسك بمعصمها وجعل ظهرها الى الجدار ، قال لها لاهثاً :

- ماذا أفعل معك الان ؟..

وامتزجت أنفاسهما الحارة ، وكانت « بولين » لاتزال مستغرقة

فى الضحك .. ولكن شيئاً ما فى نظرات « لازار » جعلها تكف عن الضحك بسرعة ، ثم تقول وهى تحاول الافلات منه :
- لا .. لا .. دعنى .. ارجوك ..

وقبل شفيتها بحرارة .. وبدا لهما أن الغرفة تتمايل بهما ، وأحسا كأن تيارا جارفا يحملهما الى هاوية عميقة ، وكادت «بولين» أن تستسلم وتلقى بنفسها بين ذراعى « لازار » الا أنها استجمعت كل قواها النفسية والبدنية وحررت يديها من قبضتيه ، وادارت وجهها المضطرم بالانفعال عن وجهه ، ثم تهالكت جالسة وهى تلهث قائلة :

- لقد آلمت يدي يا « لازار » !

ومنذ ذلك الحين وهما يشعران بالجاذبية الجنسية تقرب بينهما، وتضفى على تلامس أيديهما أو جسديهما احساسا جديدا . وكان « لازار » يدرك ان « بولين » على استعداد - رغم مقاومتها - لان تسلم له نفسها فى احدى اللحظات التى تتلاشى فيها الإرادة أمام قوة العاطفة .. ولكنه قرر فى ذات نفسه أن يلوذ بالحكمة والاعتزان ،لانه كان يؤمن بأنه سيكون المسئول - أولا وأخيرا - اذا ارتكب معها هذه الخطيئة !

على أن هذا الصراع النفسى جعله يزداد حبا لها ، ورغبة فيها .. ومن ثم لجأ الى الموسيقى يفرغ فى نعماتها عواطفه المشحونة بالرغبة الجنسية ، ويظهر بها أدرا ن نفسه ، ويجعل حبه - عن طريقها - صافيا كالنبع النمر ..

وبدا له كل شىء طاهر فى النهاية .. وراح يقدهسها فى حبه وكأنها ملاك طاهر ، حتى لقد بلغ من تقديسه لها أنه لم يعد يفكر فى تعجيل يوم الزواج

وذات يوم ، قال « شاننو » لزوجته فى اضطراب شديد عقب عودتها من الخارج :

- أنظرى يا « ايوجين » .. اقرأى هذا الخطاب الذى وصلنى اليوم ..

وكان خطابا من « ساكارد » يهددهما فيه بابلاغ الامر الى مجلس الاسرة ، ثم الى المجلس الحسبى ، اذا لم يقدما اليه كشف حساب

بشأن أموال القاصر « بولين » ..

واضطربت مدام « شانتو » بدورها ، وغمغمت قائلة لزوجها :
- هذا اللعين؟! ..

وتبادل الاثنان النظرات ، وقد شحب وجهاهما .. ولكن
« شانتو » قال أخيرا :

- ألا ترين أن الوقت قد حان لزواجهما حتى ننجو من هذا
المأزق! ..

ولكن مدام « شانتو » ظلت تراوغ ، ثم قالت في النهاية :

- اننى لأستطيع ان أضحي بسعادتهما لانقاذنا من هذه الورطة ..
فمن يدرينا أنهما متحابان فعلا؟! .. ألا يجوز مثلا أن « بولين » ثم
تعد تحب « لازار » أو أن العكس صحيح ؟ .. ألا يجوز أنهما يحببان
أحدهما الآخر كما يحب الاخ أخته ، لا أكثر .. ثم لماذا نلجأ الى
زواجهما للانقاذ؟! .. لقد بلغت « بولين » الثامنة عشرة في الشهر
الماضى ، واصبحت الان حرة التصرف فى أموالها

واستطردت مدام « شانتو » تقول وقد استعادت هدوءها :

- ان المادة {٧٨} تعطى للقاصر الحق فى اختيار أى شخص ليسوى
الحسابات مع الوصى .. وماعلينا الان الا أن نبحث عن شخص
موثوق به ، يتفاهم معنا على هذه الحسابات ويوقع بالموافقة عليها
بعد أن تأذن له « بولين » بذلك ..

وقال « شانتو » :

- ومن أين لنا هذا الشخص ؟

وفجأة قالت مدام « شانتو » وكأنما هبط عليها الوحي :

- آه .. مارايك فى الدكتور « كازينوف » ؟ .. انه يعرف

مشاكلنا ولا أعتقد أنه سيرفض التعاون معنا ..

فأوما « شانتو » برأسه ، ثم قال وهو يحملق فى وجه زوجته :

- اذن فأنت تنوين أن تردى لـ « بولين » كل ثروتها .. الباقى

من كل ثروتها ؟

وصممت برهة كانت خلالها تتصفح كتاب القانون ، ثم قالت

أخيرا :

– طبعاً سأرد إليها كل ماتبقى من أموالها ، وبذلك نرفع هذا العبء عن كاهلنا .. ويكفى أننا قد أصبحنا موضع الاتهام بسبب هذه الثروة .. اننى على استعداد للتبرع بخمسة فرنكات اذا استطعت أن أتخلص من هذا العبء الان .. وعلى كل حال فلا بد أن نعيد هذا الباقي يوماً ما ..

وفي اليوم التالى ، عندما جاء الدكتور « كازينوف » ليتناول طعام العشاء كالمعتاد فى مساء كل يوم سبت ، تحدثت اليه مدام « شانتو » فى الأمر ، وطلبت منه أن يسدى إليها والى الاسرة هذا الجميل . وقد اعترفت فى حديثها معه بكل شيء ، وذكرت الاسباب التى أدت الى ضياع المائة الف فرنك دون استئذان مجلس الاسرة .. ثم عرجت فى حديثها الى موضوع الزواج ، وأكدت قيام الحب بين « بولين » و « لازار » ثم حدثته أخيراً عن الفضيحة المحتمل وقوعها اذا تطورت الامور ووصلت الى المحاكم الحسبية ..

وأصر الطبيب – قبل أن يعد بشيء – على أن يتحدث أولاً مع « بولين » على انفراد . وكان يعلم منذ فترة طويلة أن الاسرة عشت بشروة الفتاة ، واعتادت أن تختلس منها مبالغ متفاوتة بانتظام . ومع ذلك فقد التزم الصمت خشية أن يملأ بالقلق نفس الفتاة .. أما الان فقد رأى أن من واجبه أن يحذرهما ، وان يطلعها على الموقف بكل صراحة ، قبل أن يصبح شريكاً للاسرة فيما فعلت ..

وتحدثت مع الفتاة بكل صراحة ووضوح فى غرفتها الخاصة وكانت مدام « شانتو » قد حضرت الجزء الاول من المقابلة ، ثم لم تلبث أن انصرفت تاركة الاثنين معاً على انفراد . وفى خلال اللحظات القليلة التى جلستها مدام « شانتو » مع « بولين » والطبيب ، قالت ان الزواج يتوقف على خروج « بولين » من الوصاية بصفة قانونية ، وذلك لان « لازار » لن يقبل أبداً أن يتزوج طالما كان متهماً من مجلس الاسرة بأنه يحاول المراوغة فى تقديم الحساب . وكان لحديث العمه اثره الكبير فى تحديد موقف « بولين » وفى اثاره عواطفها الطيبة نحو الاسرة .. ومن ثم أخذت تتوسل للطبيب لكى يبذل كل جهده ليسوى الامور مع آل « شانتو » ومجلس الاسرة . وقد أصرت أمام الطبيب على أن تضحى بكل شيء حتى لاتفقد عطف الاسرة وحب

« لآزار » . وعبثا حاول الطبيب أن يوضح لها حقيقة الموقف . . . بل لقد تمادى وأراد أن يثير في نفسها الخوف من احتمالات المستقبل . . . احتمالات الافلاس التام ، والجحود ، والآلام النفسية المنتظرة . وكان كلما أسرف في أظلام الصورة ، ازدادت هي اصرارا على موقفها ، ورغبة في التضحية بالمزيد من المال . . . قالت له :

– لا . . . لا . . . أرجوك . . . لا تثبط همتي ، ولا تجعلني اندم على على شيء ، فأنا قد ورثت عن أبي طبيعة الحرص الشديد ، وأريد أن أتححر منها . . . وأعتقد أنني نجحت في هذا . . . ليأخذوا كل ماتبقى من مالى اذا أرادوا ، طالما أنهم يعوضوننى عنه بالحب والحنان . . . وقال لها الطبيب :

– اسمعى . . . هل تضحين بكل شيء من أجل حبك لابن عمك . . . فاضطرم وجهها خجلا ولم تجب . . . وهنا قال الطبيب :

– وكيف يكون الحال لو أن « لآزار » امسك عن حبك فيما بعد فنظرت اليه في فزع ، وامتألت عينها بالدموع ، وهتفت قائلة بكل مألديها من قوة :

– لا . . . لا . . . لا . . . لماذا تريد ان تشقيني ؟

ولم يسع الطبيب عندئذ الا أن يستسلم ، لانه لم يستطع أن يؤذى هذه الفتاة الكريمة عن طريق تحطيم مشاعرها الطيبة ، وافساد خيالها الجميل عن الحياة . . . ولماذا يفعل والحياة نفسها سوف تقسو عليها بعد سنوات قليلة ؟!

وتولت مدام « شانتو » قيادة المعركة بمهارة بالغة ، وتم اعداد جميع الاوراق اللازمة لآخراج « بولين » من الوصاية ، وتكليف الدكتور « كازينوف » بالاشراف رسميا على مصالحها حتى تبلغ الحادية والعشرين أو حتى تتزوج . ووافق مجلس الاسرة على هذه الإجراءات ، وذهبت مدام « شانتو » مع الطبيب الى مدينة « كان » للحصول على توقيعات الجهات الرسمية على هذه الإجراءات وتصادف أن كان « لآزار » يقوم بزيارة بعض أصدقائه في مدينة « كان » . . . فلما عاد ، قال لوالديه بحماس :

– ان « لويز » ستفاجئنا بالزيارة في الاسبوع المقبل . . اننى لم اكد أعرفها حين رأيتها . . انها تقيم الان مع ابيها في بيته . لقد اصبحت رشيقة ، جميلة ، جذابة . .

ونظرت « بولين » اليه في دهشة من الحماس الذى رن في صوته وهو يتحدث عن « لويز » . . أما مدام « شانتو » فقد هتفت قائلة :
– آه . . بمناسبة الحديث عن « لويز » التقيت في المركبة العامة بسيدة تعرف ال « ثيبو دبير » . . وقد كدت اذهل حين علمت من هذه السيدة أن والد « لويز » قد رصد لها « دوطة » زواج مقدارها مائتى ألف فرنك ، لاشك أنها تعتبر الان في الوسط الاجتماعى من أغنى الاغنياء

فقال « لازار » :

– ان « لويز » ليست في حاجة الى اغراء أحد بالمال ليتزوجها . . انها جميلة الى حد مثير . . هذا فضلا عن خفة ظلها . .

ومرت سحابة قاتمة على وجه « بولين » وارتعدت شفاتها بعصبية ، ولمح الدكتور « كازينوف » ماطراً على وجهها ، فرفع كأسه وقال :

– لنشرب نخب زواج « لازار » و « بولين » . . . وأرجو أن يكون قريبا . .

ولم تضحك مدام « شانتو » بل ولم تبتسم . . وانما رفعت الكأس الى شفيتها في بطء . أما « شانتو » نفسه ، فقد اوماً برأسه موافقا دون أن يشرب شيئا لانه ممنوع من شرب الخمر . وأمسك « لازار » بيد « بولين » في حب وحنان وقال انه يتمنى أن يقترب هذا اليوم حتى يضع كل حياته بين يدي ملاكه الحارس . واضطرم وجهه « بولين » بالسعادة ، وصفطت على يده ، وشرب الجميع في ابتهاج وسرور . .

وعاد الطبيب يقول :

– وأرجو ان يعيش كل منا حتى يبلغ المائة من عمره !
وكان يؤمن بأن في مقدور الانسان أن يعيش مائة عام اذا عرف كيف يعتدل في طعامه وشرابه . .

وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام ، أصرت مدام « شانتو »

على أن تصحب « بولين » الى درج المكتب المودع فيه بقية الثروة ،
وهناك سلمتها الثمانين ألف فرنك قائلة :

– هاك يا عزيزتى ثروتك .. يجب منذ الان أن تحتفظى بها
بنفسك

فقلت الفتاة بلهفة :

– لا .. لا .. احتفظى بها ياعمى لديك

فردت مدام « شانتو » بكبرياء :

– لقد وعدتك ياعزيزتى أن أسلمك ثروتك عندما تبغين سن
الرشد ، واذا لم استطع أن أضعفها لك ، أو احتفظ بقيمتها كاملة ،
فانك أول من يعرف السبب .. والان ، عليك أن تحتفظى بها وقد
أصبحت قادرة على رعاية شئونك بنفسك

وقالت الفتاة فى حيرة :

– ولكن أين أضعها .؟

– احتفظى بها فى خزانة ملابسك الخاصة ..

وقالت « فيرونكا » لنفسها حين استرقت السمع ذات يوم
وعلمت أن الثروة قد هبطت الى ثمانين ألف فرنك :

– يا للمسكينة « بولين » .. لقد عرفوا كيف « يسـلـخونها »

بمهارة !



الفصل السابع

الهاجر البحري

وصلت « لويز » في يوم سبت لتقضى مع الاسرة شهرين كاملين . وكانت الاسرة - عندما وصلت «لويز» - مجتمعة في الشرفة الكبيرة ، وكان النهار قد بدأ ينسحب أمام طلائع المساء . . وكان الجو حارا في ذلك اليوم من شهر أغسطس ، لولا أن نسائم البحر كانت تخفف من قسوته . وكان الأب « هورتير » راعى الكنيسة ، قد وصل وراح يلعب الشطرنج مع العجوز « شانتو » بينما جلست بجوارهما مدام « شانتو » تشتغل فى قطعة تطريز ، وعلى مسافة بضع ياردات وقفت « بولين » أمام مقعد صخرى مستطيل جلس عليه أربعة أطفال من فقراء البلدة : ولدان ، وبنتان . .

وصاحت مدام «شانتو» وهى تضع قطعة التطريز جانبا ، حين رأت «لويز» مقبلة :

- آه . . لقد حضرت يا «لويز» . . كنت أنوى أن أذهب للقائك في مفترق الطرق خارج البلدة

وقالت « لويز » ان « مالفوار » أحضرها بمركبته في سرعة بالغة . . وكانت رغم الرحلة ، فى سمت جيد ، بحيث لم يكن ثمة ما يدعو الى ان تغير ملابسها . وقد اخذت تقبل الجميع ، الواحد بعد الاخر . . بينما أسرع العمة «شانتو» الى اعداد الغرفة الاضافية لاقامتها . . وطوقت « لويز » خصر «بولين» بحرارة وشوق ، وقالت لها ضاحكة :

- انظرى الى ياعزيزتى . . ألم نكبر معا ونصبح غادتين رائعتين ؟ . . اننى الآن قد تجاوزت التاسعة عشرة . . آه . . ثم صممت برهة ، قبل أن تردف قائلة :

– دعيني أهنئك يا عزيزتى .. لا تكذبي .. لقد سمعت أن الزواج سيتم في أقرب وقت ؟ او على الاصح في الشهر القادم .. وعانقتها «بولين» بحرارة الاخت ، واضطرم وجهها بشدة عندما تحدثت « لويز » عن الزواج ، ثم قالت مضطربة :
– لا « يا لويز » لقد سمعت خطأ .. فاننا لم نحدد الموعد بعد ، وربما يتم كل شيء في الخريف القادم .. فضحكت « لويز » قائلة :

– حسنا جدا .. المهم ألا تنسونى .. اليس كذلك ؟ .. أين «لازار» ؟!

فرد العجوز « شانتو » قائلا :
– انه في بلدة بابو لمفاوضة المحافظ في أمر ما .. وسوف يعود لليلة ..

وكان « لازار » قد انغمر في مشروع جديد ، وهو مشروع اقامة حواجز من الكتل الخشبية والحجرية لترويض المد البحرى ومنعه من اغراق البلدة مرتين في العام ، وتحطيمه لبيوتها ، الواحد بعد الاخر . وكان المد السابق – في شهر مارس – قد حطم بيتين آخرين وكان المشروع الذى وضعه «لازار» لانقاذ البلدة من غوائل البحر يحتاج الى اثنى عشر الف فرنك لتنفيذه .. ومن ثم ذهب الى المحافظ في بلدة بابو ليقنعه بدعوة مجلس المحافظة والموافقة على اعتماد هذا المبلغ لتنفيذ المشروع ..

وقال الأب «هورتيير» فى معرض ذكرياته عن بلدة بونفيل ، وهو يلعب مع العجوز « شانتو » :

– هل يصدق احد انه كان لهذه البلدة حقول واسعة ممتدة بالقرب من الشاطئ فى يوم ما .. يبدو لى أن أهالى هذه البلدة يدفعون فى كل عام ثمن خطاياهم التى لا تفتفر .. يكفى أن أقول ان الذين يترددون على الكنيسة كل يوم أحد لا يزيدون على سبعة أشخاص ..

وكانت «بولين» عندئذ قد عادت الى المقعد الصخرى المستطيل الذى كان يجلس عليه الاطفال الفقراء الاربعة .. وقالت « لويز » لها دون أن تقترب منهم :

-- من هؤلاء ؟..

فردت « بولين » قائلة :

- هؤلاء بعض أصدقائي ..

وكانت أريحية « بولين » قد امتدت عندئذ حتى شملت الفقراء من سكان البلدة ، فنشرت اجنحة محبتها على البؤساء .. وقد بلغ من عطفها عليهم أنها كانت لا تنفر من خطاياهم ، ولا تجزع من جحودهم ، ولا تعاتبهم على سخريتهم منها ، ولا تعاقب الذى يحاول أن يسرقها ، بل كانت تعد الفطائر وتقدمها لهم ، وتصنع الجوارب الصوفية لابنائهم ، وتقدم الدواء للمرضى منهم ، وقد جعلت مساء السبت موعدا للقائها بالاطفال الفقراء فى كل أسبوع

وعرف الاهالى الخبثاء كيف يستغلون عطفها ، فكانوا يرسلون اليها أبناءهم وهم فى حالة يرثى لها من الجوع والعري وقالت « بولين » ل « لويز » ضاحكة :

- أترين ؟.. انى الان أشبه السيدة الكريمة التى توزع الصدقات يوم السبت من كل أسبوع .. ثم وجهت حديثها للأطفال قائلة :

- آه .. كف يا « كوين » عن قرص « هوتلارد » لسوف اغضب منك اذا لم تحسن سلوكك ..

ثم بدأت عملية الاحسان ، فاستدعت أولا الطفل « هوتلارد » وكان فى نحو العاشرة من عمره ، نحىلا سقيما شاحبا . وقد حضر اليها وكشف عن ركبته ، حيث رأت « بولين » جرحا عميقا فيها .. وكان أبوه قد أرسله الى السيدة الشابة « بولين » لتضع على الجرح شيئا من المراهم والمطهرات

ولما فرغت من عملها ، قالت هامسة ل « لويز » :

- ان هذا الطفل من أسرة « هوتلارد » وهى أغنى أسرة بين اهالى البلدة .. فالوالد يمتلك أكبر قارب للصيد ، الا أنهم بخلاء جدا ، ويعيشون فى حالة شديدة من الفقر والفاقة . والاسوأ من هذا ، أن الوالد ظل يضرب زوجته كل يوم حتى كاد أن يقضى عليها ، ثم تزوج خادمتها ، وهى امرأة دميمة أقسى قلبا منه .. ولكن الزوج يضرب المرأتين الآن .. وهذا الطفل يعيش معذبا بين أبيه وزوجته الثانية

ودون أن ترى نظرة الاشمزاز التي بدت في عيني «لويز» رفعت صوتها قائلة :

- هذا دورك أيتها الصغيرة .. هل شربت زجاجة الدواء المقوى؟ وكانت هذه العبارة موجهة الى الطفلة ابنة «برون» - خادم الكنيسة - وكانت تبدو في براءة القديسة « سانت تريز » عندما كانت طفلة صغيرة مثلها .. الا أن ابنة «برون» كانت البثور تملو وجهها .. نحيلة الجسم ، تطل من عينيها أمارات الاضطراب العصبى رغم أنها لم تكن تتجاوز يومذاك السابعة من عمرها .. وقالت الطفلة متلعثمة :

- نعم يا آنسة شربت الدواء .. وصاح الاب « هورتيير » دون أن يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج: - كاذبة لقد شرب أبوها الدواء لان به نسبة كبيرة من الخمر ، وكانت رائحة الخمر تفوح من فمه أمس ! .. وهنا استشاطت «بولين» غضبا .. فقد كان آل « برون » - الذين لا يمتلكون قاربا - يلتمسون الرزق من صيد الجنبري والكابوريا كلما ظهرت اسرابها على الشاطئ الصخرى ليلا . وكان الوالد «برون» يحصل على بعض الاعانات - بوصفه خادم الكنيسة - ولولا ادمان الوالدين للخمر ، لامكن للأسرة أن تعيش حياة ميسرة الى حد ما . وكثيرا ما كان الاهالى يرون الاب والام غائبين عن الوعى امام بيتهما من فرط شربهما لنوع من الخمر الرخيص القوى يسمى « كالفادوس » .. هذا بينما كانت طفلتها الصغيرة ، ترى وهى تشرب بقايا كؤوسهما منتهزة فرصة غيابتهما .. واذا عجز الوالد عن الحصول على ال «كالفادوس» عمد الى دواء ابنته وشربه !

وقالت لها « بولين » :

- أيشرب أبوك الدواء بعد كل ما أبذله من جهد فى اعداده .. اسمعى ، لسوف أحتفظ بالزجاجة هنا ، ويمكنك أن تأتى وتشربى نصيبك منه كل يوم فى الساعة الخامسة مساء ! ثم جاء دور الصبى ابن «آل كوش» ، وكان فى نحو الثانية عشرة .. طويلا معرووق اليدين ، قدمت « بولين » اليه رغيفا ووعاء من الحساء وخمسة فرنكات . وكانت له أيضا قصة دامية .. فبعد انهيار منزل الاسرة ، هجر أبوه « كوش » زوجته ، وذهب ليعيش مع ابنة عمه .

أما الزوجة المهجورة ، فقد لاذت بالحياة في بيت الجمرک المتداعى المهجور ، وراحت تبیع جسدها لكل من يريد نظیر فرنكات قليلة تقيم أودها .. وذلك كله رغم دمامتها ومنظرها المنفر . وكان الابن - رغم ادراكه لكل شيء - يعيش مع أمه وهو يكاد يموت جوعا ، وكلما حاول احد انقاذه منها ، رفض وانطلق يعدو بعيدا !

وكانت « لويز » تشيح بوجهها اشمئزا ، وهى تسمع تفاصيل هذه المأساة من « بولين » التى كانت تسردها بصراحة الانسان الذى قرأ كثيرا من كتب الطب حتى لم يعد يجد فى ذكر الشئون الجنسية ما يخجل

واستطردت « بولين » تقول :

- وهذه الطفلة الصغيرة ابنة آل « كونين » .. هذه الطفلة البريئة الرقيقة التى تبدو كالوردة المقلدة دون أن تتجاوز التاسعة من عمرها، تعيش مع والديها اللذين لجأ للحياة معهما ذلك الوغد « كوش » .. لقد كان والداها يعيشان فى شيء من الرخاء ، وكان لهما قارب خاص للصيد .. ولكن الوالد أصيب بداء الشلل المنتشر فى هذه المنطقة ، وسرعان ما استولى « كوش » الذى كان يعمل بحارا فيما سبق ، على القارب ، ثم على الزوجة أيضا . وأصبح هو الآن سيد البيت .. وقد تمادى فى شره ، فأخذ يضرب الزوج المريض ، ويرغمه على النوم فى سرير صغير ، بينما ينام هو مع الزوجة فى السرير الكبير ، وفى نفس الغرفة . وأنا الآن أرعى هذه الطفلة . ومن دواعى الالم أنها لا تنجو من بعض الضربات التى يوجهها الوغد الدخيل الى أبيها .. وأسوأ من هذا أنها ترى وتفهم كل شيء ..

وتوقفت « بولين » عن الحديث لكى تسأل الطفلة قائلة :

- كيف الحال عندكم ؟ ..

وقالت الطفلة التى كانت تنصت الى حديث « بولين » باهتمام وبسرور خفى :

- ان أمى بدأت تشترك فى ضرب أبى مع عشيقها .. وفى الليلة الماضية وضعت بجوار سريرها الصغير اناء فارغا من الماء والخمر وقالت له انها سوف تتركه هكذا حتى يموت .. !

ولوت « لويز » شفيتها بحركة تنم عن الاشمئزاز البالغ ، وتعجبت

من صديقتها « بولين » التى تهتم بهذه الحشرات البشرية التى تعيش
حياة الوحوش فى الغابة ..

وأخيرا قالت معبرة عن نفورها :

– هذا يكفى يا عزيزى .. اننى لم أعد أطيق سماع المزيد ، ويبدو
ان امثال هذه المخلوقات ، لا تكفى امواج البحر لتطهر الدنيا منها !
وصاح الاب « هورتير » وهو يحرك احدى قطع الشطرنج :

– هذه سدوم وعمورة أخرى .. وقد أمضيت عشرين سنة أحذر
هؤلاء المذنبين من غضب الله ، ولكن يبدو أن اللعنة السماوية قد
حقت عليهم

وأراد « شانتو » أن يدافع عن مركزه بصفته عمدة للبلدة ، فقال :

– لقد طالبت المحافظة بإنشاء مدرسة هنا ، ولكن عدد الاطفال
أقل من ان يحتاج الامر الى فتح مدرسة .. ولهذا فاننا نلحقهم
بمدرسة فيرشمونت ، ولكنهم فى الواقع لا يذهبون لبعده المسافة
وفيما كانت « بولين » على وشك الفراغ من مهمتها .. أقبلت
« فيرونیکا » بوجهها الساخط ، وهى تقول بلهجتها المتدمرة دائما :

– ها هو ذا طفل آخر يا آنسة « بولين » ..

وكانت الوافدة الجديدة طفلة صغيرة لاتزيد عن الخامسة ، مهلهلة
التياب ، قذرة الوجه ، ملبدة الشعر ، وقد شرعت – بجرأة الطفلة
المعتادة على التسول فى الطرقات – فى رفع عقيرتها فى طلب الاحسان ،
وفى الدعاء للمحسنين :

– الرحمة ياسادة .. الرحمة .. اننى جائعة .. وأبى مكسور
الساق ..

وقالت « بولين » لـ « فيرونیکا » :

– أليست هذه ابنة « نورمال » ؟

ولكن الاب « هورتير » أسرع يقول فى غضب :

– انها ابنة الشيطان نفسه ، لاتصدقوها .. لقد مضت خمسة
وعشرون عاما على اصابة أبيها بالتواء فى قدمه .. انها عائلة من
اللصوص والمتسولين . ووالدها يساعد المهريين ، وأمهاتسرق
المحصولات من حقول فيرشمونت ، وجدها يسرق المحار ليلا من
مصايد الحكومة فى روكبواز .. وهاهم قد جعلوا من هذه الطفلة

منسولة ولصة تتسلل الى بيوت الغير لتسرق كل مايمكنها سرقة
.. انظروا كيف تحمق بنظرات جائعة الى كيس تبغى !

وكانت الطفلة حقا لاترفع عينها عن كيس التبغ الخاص بالاب
« هورتير » الا أنها بذلت جهدا حتى تمتنع عن اختطافه ، وعادت
تقول وكأنما لم تسمع شيئا من تاريخ أسرتها الحافل :

– أبى مكسور الساق .. اعطونا شيئا نأكله حتى لانموت جوعا !
ولم يسع « لويز » ، الا أن تضحك عاليا ، وهي ترى الطفلة
الصغيرة تتصرف كأنها متسولة محترفة .. ولكن « بولين » قالت
للطفلة بغضب وهي تعطيها قطعة من ذات الفرنكات الخمسة :
– اسمعى .. لسوف أعطيك مثل هذه القطعة كل أسبوع اذا
أمتنعت عن التسول فى الطرقات ..

وهتف الاب « هورتير » لـ « بولين » محذرا :

– ابعدى كيس نقودك عن عينها والا سرقة منك ..

وفى تلك اللحظة ، هبطت مدام « شانتو » بعد ان اعدت الغرفة
لإقامة « لويز » فلما رأت الطفلة الصغيرة ابنة « ال نورمال » وعلمت
أن « بولين » وعدتها بخمسة فرنكات كل أسبوع – أى بعشرين فرنكا
فى الشهر – قالت فى غضب :

– اننى لا أحب أن أرى هذه اللصة الصغيرة هنا فى بيتى يا « بولين »
ان من حقا ان تتصرفى فى أموالك الان ، كما يروق لك .. ولكننى
لا أسمح لك ببعثتها على هؤلاء الصعاليك .. فأنا لازلت
مسئولة عنك أدبيا ..

وعادت « فيرونكا » الى الظهور بعد أن اختفت فى المطبخ برهة ، ثم
قالت :

– لقد أرسل الجزار يطالب بحسابه .. انه يريد ستة وأربعين
فرنكا

وأمسكت مدام « شانتو » عن الحديث فى اضطراب ، ثم راحت
تفتش فى جيوبها على غير جدوى ، وأخيرا قالت لـ « بولين » :

– هل معك هذا المبلغ يا عزيزتى « بولين » ؟ .. اننى لا أملكه الان ،
ولن أستطيع أن أصعد الى الطابق الثانى مرة أخرى ..

وذهبت « بولين » وراء الخادمة لتدفع للجزار حسابه ، وكان هذا

الموقف يتكرر بضع مرات كل شهر منذ ان استلمت باقى ثروتها ..
 وقالت « فيرونیکا » بغضب بعد انصراف الجزار :
 - هاهى ذى اموالك تطير مرة اخرى ، ولكن على يدك هذه المرة .
 ان الله نفسه لايرضى بهذا ..
 ولما عادت « بولين » الى الشرفة ، كانت مدام « شانتو » تقول بكل
 رقة للفتاة « لويز » التى كانت ترنو الى البحر ينظرات حاملة :
 - آه .. ان « لويز » الحبيبة تعيش مرة اخرى فى عالم الاحلام ..
 سوف تشبعين - يا حبيبتى - من منظر البحر اثناء اقامتك معنا .
 لقد اعددت لك غرفتك ، وهى امام غرفتى كما تعلمين .. لسوف انعم
 بجيرتك طيلة هذين الشهرين ..



ولم يحضر « لازار » الا فى اليوم التالى .. وكان قد ذهب الى
 مدينة « كان » ليقنع المسئولين فيها بجدوى مشروعه ، وليظفر منهم
 بالموافقة على اعتماد المبلغ اللازم . ورغم انه عاد دون ان يظفر بهذه
 الموافقة ، الا انه قال - بلهجة التاكيد - ان الجميع وعدوه باعتماد
 المبالغ اللازمة لانقاذ البلدة من غوائل البحر . ولكن « لازار » كان -
 كعادته - متحمسا ملهوبا لا يكاد يطيق التأخير يوما فى بدء تنفيذ
 المشروع . وقد قال معربا عن ضيقه :
 - آه .. لو كان لدى الاثنا عشر الف فرنك ، لاقرضتها للبلدية ،
 ولبدأت فى تنفيذ المشروع .. ثم استرد المبلغ عند اعتماده من المجلس
 .. بل اننا لن نحتاج الى هذا المبلغ كله دفعة واحدة ، بل سنحتاج
 الى جزء منه لنجرى التجارب ، يكون مجلس المحافظة عندها وافق على
 اعتماد المبلغ بأكمله

وصمت برهة ريثما يلتقط أنفاسه ، واستطرد يقول :

- وأهم من هذا كله أرى أن نبادر بالعمل قبل أن يرسل اليينا
 المجلس مهندسيه الذين لن يهمهم شيء الا تعطيل العمل والإدلاء
 بالنظريات التى لايمكن تطبيقها .. ان المحافظ نفسه أعرب لى عن
 دهشته البالغة لبساطة المشروع وقلة تكاليفه ..

وكان « لازار » شديد الانفعال والحماس كلما فكر فى انه قادر على
 ترويض البحر وكبح جماحه .. وكان فى أعماق نفسه يشعر بالحق

على هذا البحر باعتباره المسئول عن فشل مشروعه الاول . . مشروع استخراج الاملاح المعدنية من النباتات البحرية بالوسائل العلمية . ورغم انه لم يحاول صب لعناته - علنا - على رأس البحر ، الا انه كان ينتظر اليوم الذي ينتقم فيه منه ، وأى انتقام اعظم من ان يحد من طفياته ، ويوقفه عند اقدام البلدة يلحقها دون ان يجرؤ على الصعود اليها ! ؟

واذا غضضنا الطرف عن هذا النزعات الشخصية ، اليس في المشروع لمسة انسانية ؟ . اليس في تنفيذه فائدة للصالح العام ؟

وعدا هذا كله كان مشروع « لازار » يقوم على أساس بسيط ، وهو غرس كتل من الخشب في صخور الشاطئ ، وتدعيمها بالكتل الصخرية ، والربط بينها بألواح خشبية تكون في المستقبل مثابة لتراكم الاعشاب البحرية مع الرمال مما يزيد الحواجز قوة وتدعيما . .

وقد ظل « لازار » أسابيع عديدة وهو يصنع في منزله نماذج مصفرة لهذه الحواجز ، ثم يسلط عليها تيارات مائية مناسبة لحجمها حتى يعرف مدى قوة تحملها . وانتقلت حماسه في تنفيذ المشروع الى « بولين » ولكنها كانت تنظر الى الامر كله في حكمة واتزان . وكلما نظرت الى البحر ورات عنف ضربات الموج للشاطئ ، احست في اعماق نفسها ان الحواجز التي يقترحها « لازار » لن تكون بين يدي البحر الا كالدمية بين يدي رجل قوى . .

وفي ذات ليلة ، جلست الى نافذة غرفتها المطلة على البحر حتى ساعة متأخرة من الليل . . وكان « لازار » في الايام القليلة السابقة ، قد بدأ يعرب عن سخطه وملله ، قائلا انه سوف ينفذ يديه من المشروع كله مادام لا يجد المال اللازم لتنفيذه ، وانه سوف يرحل الى استراليا ليشق طريقه نحو الثراء العاجل !

وظلت « بولين » في جلستها الى النافذة تفكر في موقف « لازار » وتنظر الى البحر الذي كان مده يزحف على البلدة ، ثم تعود بذاكرتها الى أولئك البؤساء الذين يتشردون كل عام من بيوتهم بسبب انقضاض هذا البحر عليهم . .

ونهضت من مكانها ، ومضت الى فراشها حيث جلست على حافته وهي تتساءل : ماذا لو حاولنا اقتحام المستحيل ؟ . اليس هناك أى

احتمال في نجاح مشروع « لازار » ؟ .. وحتى لو كان احتمال الفشل أكبر جدا من احتمال النجاح ، فما قيمة المال بجانب ارضاء نفسية « لازار » ومنعه من الرحيل الى أستراليا ؟

ونامت « بولين » وهي تحلم بفرحة أهالي البلدة عند نجاح المشروع ، واطمئناتهم عاما بعد عام على أن البحر لن يمتد اليهم ليشردهم ويحطم بيوتهم وفي صباح اليوم التالي ، نادى عليه قبل أن يهبط ، وقالت له ضاحكة :

– أتعرف أنى حلمت هذه الليلة أنى أقرضتك المبلغ اللازم لتنفيذ مشروعك يا « لازار » ؟

واستشاط الشاب غضبا ، ورفض عرضها قائلا بحدة :

– لا .. أتريدى منى أن أغادر هذا البيت فلا أعود اليه ؟ ألم يكف ما حدث بسبب مصنع الاملاح المعدنية ؟ .. اننى لازلت حتى الان أشعر بالخجل القاتل كلما تذكرت هذه المأساة وان كنت لا أتحدث الى أحد بذلك

ولكنه ، بعد ساعتين فقط ، وافق على قبول المبلغ ، وتصافح مع « بولين » فى حماس .. وأكد لها أن المبلغ سيكون قرضا يسدده بمجرد أن يوافق مجلس المحافظة على الاعتماد اللازم ، بل انه لن يأخذ الاثنى عشر ألف جنيه دفعة واحدة ، وانما يكفى أن يتسلم المبالغ القليلة اللازمة للاعمال التمهيدية ريثما تتم موافقة مجلس المحافظة

وفى نفس الليلة ، استدعى « لازار » النجار الخبير من بلدة أرومانش ، وعقد معه جلسات طويلة .. وسار بصحبته على الشاطئ وهما يتناقشان فى الموضوع وفى التكاليف ، وانتشر الحماس كله فى جو المنزل ..

مدام « شاننو » فقط هى التى استبد بها الغضب حين سمعت بهذا الامر . وقد دهش « لازار » من موقفها ، وامتلات نفسه بالحيرة والعجب . واعربت الام قائلة انه ما كان ينبغى ان يلجأ الى البقية الضئيلة من ثروة الفتاة ، وأن والد « لويز » ما كان ليردد فى اقراضة هذا المبلغ لو انه لجأ اليه . بل ان « لويز » نفسها – بدوطها البالغة مائتى الف فرنك – ما كانت لترفض اقراضه هذا

المبلغ لو أراد . وكانت الام لاتكف في الآونة الاخيرة عن الایماء في حديثها الى المائتي ألف فرنك التي تتكون منها « دوطة » لوزير ..

ووقف « شانتو » الى جانب زوجته ، وأحست « بولين » بالاسى وهى ترى انها كلما بذلت من مالها في سبيل الاسرة ، كان نصيبها من الحب والتقدير أقل .. بل لقد أخذت تشعر في الايام الاخيرة بلون من النفور من جانب مدام « شانتو » وكأنما هى قد اعتادت ان تسيء اليهم كلما بذلت لهم من مالها وحنانها وحبها ..

أما الدكتور « كازينوف » فقد نفص يديه من المسئولية كلها حين علم بموضوع الاثنى عشر ألف فرنك ، وقال للفتاة على انفراد :

– يا طفلى العزيزة ، اننى لا أريد أن أكون شريكا في عملية هذه السرقة العلنية وارجو ان تمتنعى عن استشارتى بعد اليوم في كيفية انفاق اموالك ، وعليك ان تفعلى ما يحلو لك ، لاننى لا استطيع أن أرفض لك طلبا واملأ قلبك البرىء بالحزن !

وتأثرت « بولين » من كلمات الطبيب ، وقالت له فى مودة :

– شكرا لك يا عمى العزيز .. ولكن اليس هذا ما ينبى ان نفعله؟ .. ما قيمة المال طالما نحن ننفقه فيما يجلب لنا السعادة جميعا !؟

فأمسك بيديها بين يديه وقال :

– نعم .. نعم .. ان الانسان يدفع ثمن سعادته ، وفى أحيان أخرى يدفع ثمن شقائه .. أرجو لك التوفيق ..

ودفعت « بولين » الثمن غاليا من أجل أيام قليلة من السعادة .. ذلك أن المشروع عند التنفيذ كان كفيلا بنشر جو من السعادة على البيت كله ، لان « لازار » كان يدخل ويخرج وهو يكاد يرقص من فرط الابتهاج .. لقد وجد أخيرا طريقه نحو الثراء ! لماذا لا يتخذ من هذه الحواجز البحرية عملا يحترفه على طول الشواطىء ؟ ألم يضع هو التصميمات التى تجعل هذه الحواجز بسيطة قليلة النفقات ؟ .. اليس من حقه أن يربح بضعة الاف من الفرنكات فى كل مشروع ؟

ولكنه أفاق من أحلامه على ضحكات السخرية التى أطلقها أهالى البلدة .. فرغم أن ذلك المشروع كان لصالحهم ، الا انه كبر عليهم أن ينجح هذا « البرجوازي » اللعين فى ترويض البحر وكبح جماحه .

فلما سخرت الامواج - في المد الربيعي الرهيب التالي - من حواجزه
وحطمت الجانب الاكبر منها ، هلك الاهالي شماتة واخذوا يعرضون
بـ « لآزار » في غدوه ورواحه

وعاش الشاب اسابيع اخرى في حالة من اليأس وهو ساخط على
كل شيء . . ولكنه لم يلبث ان بدأ يفيق من يأسه عندما اقبلت «لويز»
في الصيف التالي لتقضى مع الاسرة شهرا . . !



غرام جديد ..!

عقب فشل مشروع الحواجز البحرية ببضعة أسابيع ، أصيب العجوز «شانتو» بنوبة عنيفة من آلام النقرس جعلته يملأ جو البيت بالصياح والتوجع ، مما حدا ب « بولين » الى أن تسجن نفسها معه أكثر من أسبوعين ، لرعايته والعناية به ، ومحاولة التخفيف عنه .
وكانت «لويز» قد وصلت في اليوم التالي من نوبة النقرس ..
ولما كانت بطبيعتها المدللة المرفهة ، لا تطيق أن تبقى في جو مشحون بالآلام والتوجع ، فقد أخذت تقضى معظم أوقاتها خارج البيت مع « لازار »

وأمضى الاثنان أياما جميلة .. وقد دهش «لازار» في أول الامر من تصرفات هذه الرفيقة الجديدة .. كانت تختلف كثيرا عن « بولين » ..
فهي مثلا لا تتردد في الصراخ كلما لمس قدمها حيوان الكابوريا على الشاطئ ، وقد بلغ من خوفها من الماء أنها كانت تجزع من القفز فوق إحدى الحفر المائية الكثيرة على الشاطئ . وكانت تتمسك دائما بمظلتها ، وتغطي يديها وذراعيها بقفزات طويلة حتى لاتعرض أى جزء من جسمها الابيض الرقيق للعوامل الجوية

وبعد أن أفاق من دهشته ، بدأ ينجذب نحوها بسبب تصرفاتها الرقيقة التي تنم عن الضعف الانثوي ، وبسبب عطر الهليوتروب الذي كان ينفذ الى أنفه ، ثم الى قلبه ، بعد ان يمر برأسه فيديرها !
انه الآن لايلعب مع أخت له ، كما كان يشعر نحو « بولين »
وانما هو ينعم بصحبة فتاة رقيقة جميلة ناضجة تمتزج رائحة الانوثة فيها مع العطر المنساب من أردانها .. بل ان قلبه كان يزداد خفقانا

كلما حرك الهواء ذيل فستانها ، وكشف عن جانب من الجسد
المثير المستدير ..

ورغم أنها كانت - في نظره - أقل جمالا من « بولين » وأكبر سنا
بعام ونصف عام ، وأقل نضارة .. إلا أن تصرفاتها الانثوية ، ورقة
جسمها ، ونظراتها المليئة بالوعود والاستشهاد ، جعلته يشعر أن
أمامه ثمرة حلوة مغرية تدعوه الى قطفها ..

وهكذا بدأت مشاعره التي كانت تقوم - في أول الامر - على
أساس من الصداقة والزمالة ، تتحول الى مشاعر أساسها الرغبة
الجنسية ..

ولما استطاعت « بولين » أن تتحرر قليلا من سجنها مع العجوز
المريض ، عادت الى الخروج مع « لازار » و « لويز » .. ولكنها لم تلبث
أن شعرت منذ الوهلة الأولى أن ثمة جوا جديدا بين الاثنين .. هنا
ضحكات متبادلة ، ونظرات لها دلالاتها ، وهمسات بعيدة عن أذنيها .
وقد حاولت في أول الامر أن تتظاهر بعدم الاهتمام ، ولكنها لم تستطع
أن تمنع نفسها من الشعور بالالام الخفى كلما خرجت معها ، ورأت
هذه المظاهر تتكرر المرة بعد الأخرى

وقررت أن تعتذر عن مصاحبتهما خارج البيت كلما استطاعت أن
تجد العذر المناسب . ولم تلبث الهوة بينها وبين « لازار » ان ازدادت
اتساعا كلما ثارت غاضبة لآقل سبب ، وكلما بدت عابسة مكتئبة
السمات بلا سبب !

وظلت « بولين » تجتر آلامها في صمت ، حتى اذا كانت ذات يوم مع
« لازار » و « لويز » على الشاطئ ، اذ بها تسقط اعياء .. واذ بـ « لازار »
يسرع اليها في جزع ، واذ هو يلمس جبينها فيلسعه من فرط الحرارة
المندلعة في جسمها . وسرعان ما حملها بين يديه - وهى في شبه
غيبوبة - وانطلق يعدو بها الى البيت دون أن يحفل بأمر « لويز » التي
كانت تحاول اللحاق به عبثا ، وكأنما نسي أمرها تماما !

وفحص الدكتور « كازينوف » « بولين » في اليوم نفسه ، وأعلن أنها
مصابة بخراج في حلقها ، وأن حياتها أصبحت معلقة بخيط واه ..
لان الخراج اذا لم يضمر في الوقت المناسب ، فسوف يؤدي الى
موتها اختناقا ..

وبقى «لازار» بجانب «بولين» ثلاثة أسابيع يحارب معها الموت ساعة بعد ساعة .. وكان يجلس بجوار فراشها الساعات الطوال ، يرقبها وهي تكتم آلامها ، وينظر الى حبات العرق المتفصدة من جبينها من فرط ألمها ، ويمسح على جبينها بيد أكثر حنانا من يد الام ، ويسقيها الدواء بيده ، ويحملها بين ذراعيه الى المقعد الوثير حتى يقوم بتغيير أغطية ومفارش السرير .. وكلما شعر بالعجز عن تخفيف آلامها ، راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يشد شعره ، ويحدث نفسه كأنما فقد عقله تماما ..

وكان الدكتور «كازينوف» يحضر كل يوم لفحص المريضة ، وفي بعض الاحيان كان يحضر مرتين في اليوم .. ولقد اضطر ذات مرة الى قضاء الليل كله بجانبها ، وهي تلهث في سبيل التنفس بعد ان تضخم الخراج وكاد يسد القصبة الهوائية . وكاد «لازار» ان يسقط مغشيا عليه حين أغمى على «بولين» من فرط الألم ، ولكن الازمة مرت بسلام .. وبدأ الخراج في صباح اليوم التالي في الضمور تدريجيا ..

ودخلت «بولين» في دور النقاهة ، وبدأت تدرك ما يدور حولها بعد أن كانت في شبه ذهول دائم ، وكان «لازار» قد بدأ من ناحيته يشعر بالملل بعد أن اطمأن على نجاة «بولين» من الموت ، وبعد ان أخذ يجلس الساعات الطوال بجوار فراشها دون أن يفعل شيئا . وفي ذات يوم ، قالت له « بولين » باسمه عندما رآته يكتم ثناؤبه :

— « لازار » يحسن ان تخرج وتتمشى قليلا .. وفي مقدور « فيرونیکا » أن تحل محلك ريثما تعود ..

ولكنه رفض بشدة ، وقال انه لا يستطيع أن يتخلى عنها حتى يطمئن الى استردادها للصحة تماما .. ولكنه لم يلبث ان هدا قليلا عندما راحت هي تشرح له الامر برفق :

— انك لن تتخلى عنى بخروجك .. بل على العكس ، ان سيرك في الهواء الطلق سوف يمدك بالقوة التي تجعلك أقدر على رعايتي .. وهل يرضيك أن تسقط أنت في النهاية مريضا ؟

وكانت « لويز » في تلك الفترة قد عادت للاقامة مع الاسرة بضعة أسابيع ، وكانت مدام «شانتو» قد بدأت معها مناورة خفية تسعى بها الى تحقيق هدف خاص .. ومن ثم راحت تتفنى امامها بمواهب

ابنها « لازار » ووسامته ، وبشبابه ، وبأخلاقه البادية في رعايته
لـ « بولين » ، وبالمستقبل اللامع الذي ينتظره . . وقد أسرفت في ذلك
كله اسرافا جعل رأس الفتاة يدور ، وافكارها لا تتحول عن « لازار »
وفيما كانت « بولين » تحاول اقناع « لازار » بالخروج والترقب
قليلا ، اقبلت « لويز » لتسأل عنها ، وانتهزت « بولين » هذه الفرصة
وقالت لها :

– أرجوك يا « لويز » . . دعيه يخرج معك . .

وحاول « لازار » أن يرفض ، ولكن « لويز » قالت ضاحكة :

– هل يرضيك ان اذهب بمفردي الى آل كوين الاوغاد . . لقد
كنت في الطريق اليهم لشراء كمية من الجنبرى . ولكننى أخشى أن
اتعرض لسلطة السنتهم . .

وقالت « بولين » :

– أجل يا « لازار » . . لا ينبغي أن تدع « لويز » تذهب بمفردها
الى آل « كوين » . . وهذه فرصة مناسبة للتريض قليلا . .

ووافق « لازار » أخيرا ، وخرج مع « لويز » . . وعندئذ بدت على
وجه بولين مسحة من القلق ، ومالت برأسها لتسمع وقع خطواتهما،
ورنين ضحكاتهما وهما يهبطان الى الطابق الارضى

ورغم هذا الشعور بالقلق والفيرة ، كانت تستدعى « لويز » بين
الحين والآخر وتقول لها في رجاء :

– أرجوك يا « لويز » أن تعنى بـ « لازار » . . خفى عنه وجنبيه
الشعور بالملل . . انه فى أشد الحاجة الى من يريح اعصابه ، اذهبي
معه وامضيا اليوم كله فى الخارج . .

وكانت « بولين » تجلس بمفردها فى غرفتها – بعد انصراف « لازار »
و « لويز » – وتشرد بنظراتها وافكارها وكأنها تتبعهما ، وتعيش
بخيالاتها معهما ، وتحاول جاهدة ان تنتصر على نوازع الفيرة فى
نفسها . .

ومرت أيام النقاهة بسرعة ، واستطاعت « بولين » أخيرا ان تغادر
غرفتها ، وتختلط بأفراد الاسرة فى الطابق الاول . . ولكنها فوجئت
بازدياد نفور مدام « شانتو » منها ، ومحاولاتها الدائمة لاغضابها ، أو
السخرية من حديثها ، أو التعريض الخفى بها . . !

وعبثا حاولت «بولين» أن تخفف من ثائرة عمتها ضدها ، أو أن تسترضيها بأية طريقة . . ومن ثم لاذت بالصبر وقسوة الاحتمال ، ووجدت في تمريرها لعمها العجوز « شانتو » ملاذا يخفف من آلامها النفسية . . وكان «شانتو» قد تعرض لنوبة عنيفة من آلام النقرس عقب شفاء «بولين» ، وأصر على ألا يمرضه أحد غيرها ، قائلا ان لمسات يديها ، بل ونظراتها الحانية العطوف ، بمثابة بلسم لآلامه . .

أما «لويز» و «لازار» فكانا يلقيان نظرة عابرة على الرجل المريض في غرفته ، ثم ينطلقان الى الخارج حيث يقضيان طيلة اليوم في اللعب والتجوال والضحك . وكان «لازار» من جانبه قد وجد في «لويز» واحة يلتمس فيها السعادة التي طالما هربت من أصابعه

وقد ظلت « لويز » فترة طويلة وهي ترى العلاقة بينها وبين «لازار» لاتعدو محاولة اغراء من ناحيتها ، واستجابة للاغراء من ناحية « لازار » . . وكان هذا الشعور يرضى غريزتها الانثوية المتفتحة ، ويملاً نفسها بالرضى لانتصارها - عاطفيا - على «بولين» ! وكانت « فيرونيكا » تلاحظ هذا كله دون ان تستطيع القيام بشيء الا الدمدمة والتحدث الى نفسها في المطبخ عن العقوق والجحود والخيانة ومقابلة الاحسان بالاساءة

وفي ذات يوم ، عجزت مدام «شانتو» عن احتمال صيحات زوجها، فقالت لـ «بولين» :

- اننى صاعدة الى غرفتى لان اعصابى تكاد ان تنهار !

وظلت « بولين » بجوار العجوز المريض تواسيه وتخفف عنه ، ولكن آلامه أخذت تزداد حتى أوشك المسكين ان يفمى عليه . ولما لم تستطع «بولين» أن تحتمل أكثر مما فعلت ، غادرت الغرفة مسرعة ، تاركة بابها مفتوحا ، وذهبت الى «فيرونيكا» في المطبخ وقالت لها :

- يجب أن نفعل شيئا للمسكين يا «فيرونيكا» . . فلنحاول أن نستعمل معه المكمدات الباردة . ان الدكتور «كازينوف» يقول انها خطيرة ، ولكن هل نتركه يتعذب بهذا الشكل . . أرجوك ان تعطينى بعض قطع القماش النظيفة

فقالت «فيرونيكا» في لهجة الانسان الذي فقد تماما السيطرة على أعصابه :

– قطع قماش ؟ .. لم يبق الا أن أمزق ملابسى اربا .. لقد ذهبت الآن لاطلب قطعة قماش لتجفيف الاوعية ، فأمرتنى السيدة الا أزعجها ..
فقلت «بولين» :

– اذهبى واطلبى ماتريدين من «لازار» ..
فصاحت «فيرونیکا» :

– «لازار» ؟ .. وهل تظنين أن «لازار» متفرغ لطلب كهذا ؟ انه غارق الى اذنيه فى القبلات مع تلك الفتاة «لويز» ..
فشحب وجه «بولين» وقالت :
– ماذا تعنين يا «فيرونیکا» ؟ !

وادركت «فيرونیکا» هول ما خرجت به .. وحاولت ان تفتصب ابتسامة وتتظاهر بأنها كانت تمزح معها .. ولكن «بولين» استدارت واندفعت من المطبخ وهى تكاد تختنق من فرط الغضب . ولما صعدت الى الطابق الثانى ، فوجئت برؤية مدام «شانتو» واقفة فى مدخله ، وكأنها تحرس شيئاً معيناً وحاولت السيدة ان تمنع الفتاة من الصعود الى غرفة «لازار» ولكن «بولين» تخلصت منها بقوة وحزم ، واندفعت صاعدة الى الغرفة الكبيرة التى طالما شهدت أحلى ايامها مع «لازار» .. وفتحت الباب بقوة وبغير استئذان ثم وقفت فى المدخل وقد تسمرت قدماها ، اذ شاهدت «لازار» مستغرقاً فى تبادل القبل مع «لويز» وهو يضمها الى صدره بقوة ، ويحاول أن ينضو عنها ثوبها !..



انهيار قلب

وقف الثلاثة متسمرين في أماكنهم يتبادلون نظرات مختلفة المعاني
.. فبينما كانت « بولين » تكاد تفقد رشدها من فرط الثورة والغبرة
والغضب ، كان « لازار » و « لويز » يتمنيان لو انشقت الارض
وابتلعتهما من فرط الخجل والارتباك
وصاحت « بولين » أخيرا :

– أيتها الفاجرة .. أيتها الفاجرة !

وكانت ثورة « بولين » منصبة على غدر « لويز » وخيانتها ..
كانت تعلم تماما أنها هي السبب في تطور الامور الى هذا الحد .. أما
« لازار » فقد نظرت اليه في احتقار ، وهي تعلم مبلغ ماهو عليه من
ضعف وتخاذل .. وأحست برغبة قوية في صفع « لويز » وهي تتقدم
نحوها هادرة :

– أخبريني لماذا فعلت هذا ؟ .. ماهو هدفك من هذه الخيانة ؟

.. هل يليق بك أن تقابلي ثقتي فيك بمثل هذا الغدر الرخيص ؟ !
فتلعثمت « لويز » وقالت :

– لقد أرغمني « لازار » على هذا .. لقد أمسك بي رغما عنى حتى

كاد يكسر معصمي !

فصاحت « بولين » قائلة في اشمئزاز :

– هو ؟ .. ان الدموع لتملأ عينيه اذ أنت دفعت به بعيدا عنك

.. انه اضعف من أن يقاوم اغراء امرأة أو صدها له ..

ثم أمسكت بكتفى الفتاة في عنف ، وأردفت قائلة وهي تهزها :

.. اسمعى .. اننى لم أعد اثق فيك بعد اليوم .. اتفهمين ؟ ..

عليك ان تخرجى الآن ولا تعودى الى هذا البيت مرة اخرى ..

ثم دفعت بها نحو الباب .. وتعثرت « لويز » قليلا حتى كادت أن تسقط ، ولكنها تماكنت نفسها ، واندفعت هاربة الى غرفتها في الطابق الثاني ..

وقالت « بولين » في عصبية عنيفة ، وهي تطارد « لويز » على السلم :

- اذهبي .. اذهبي .. اجمعي ملابسك .. وحذار أن أرى وجهك هنا مرة اخرى ..

ولما أوشكت « بولين » أن تقتحم غرفة « لويز » وهي في أشد حالات ثورتها النفسية ، أمسكت بها مدام « شانتو » وقالت لها وهي تتظاهر بأنها لا تعرف شيئا :

- ماذا تعنين يا « بولين » ؟ .. هل فقدت عقلك يا عزيزتى ؟ !
ولكن « بولين » اندفعت الى غرفة « لويز » وكأنها لم تسمع شيئا وصاحت مرددة :

- هلم الآن .. اجمعي ملابسك حالا واخرجي ..
وبلغ من ارتباك « لويز » واضطرابها العنيف أنها لم تجد ما ترد به على « بولين » ومن ثم راحت تجمع ملابسها من الخزانة والادراج في صمت ، ودموعها تنساب بهدوء على وجهها

وقالت مدام « شانتو » وهي تفقد السيطرة على اعصابها تدريجيا :

- انتظري يا « لويز » ! . اننى هنا ربة البيت ، والامرة فيه .. فمن ذا يجرو على اصدار اوامره بطرد ضيوفى منه ! .. ان هذا شيء لا يحتمل .

وصاحت « بولين » بشورة متزايدة :

- ألم تعرفى ؟ .. ألم تسمعى .. ! لقد ضبطتها مع « لازار » نبادله القبلات في غرفته !

فهزت مدام « شانتو » كتفيها ، وأعربت عن عدائها لـ « بولين » بقولها في غير مبالاة :

- وماذا فى هذا ؟ .. ان الامر لا يعدو ان يكون مداعبة بريئة بين صديقين نشأ معا .. وعندما كنت مريضة ، وكان هو يقضى معك الايام والليالى ، هل سألكما احد عما كان يجرى بينكما ؟ !

وهذات ثورة الفتاة في الحال ، ووقفت بلاحراك وقد شحب وجهها
ازاء هذا الشك .. اذن فقد أصبحت هي المتهمة المذنبه بعد ان كانت
صاحبة الحق ؟ .. وأخيرا قالت بهدوء :
- ماذا تعنين يا عمتي ؟ .. اذا كنت تعتقدين هذا ، فكيف سمحت
به في بيتك ؟ !

فردت المرأة بكل ثبات :

- وماذا كان في وسعي أن أفعل ؟ .. انك بالغة الرشد ، واذا كنت
تعتقدين أن طهارتك تمنعك من ارتكاب أية خطيئة مع « لازار » فلست
أنت فقط الطاهرة البريئة ، ان هناك فتيات لاتقل الواحدة منهن عنك
في هذا الشأن . وعلى هذا ، ليس هناك مايدعو الى كل هذه الثورة ،
وارجوك ان تدعى الاثنين وشأنهما ..

وتوقفت « بولين » برهة وهي لاتدرى ماذا يمكن أن تقول ، وأخيرا
تحركت في طريقها الى غرفتها بالطابق الاعلى ، وهي تقول بلهجة
قاطعة :

- حسنا جدا .. لسوف اخرج أنا من البيت ..

وخيم السكون الثقيل على البيت .. ولم يكن يقطعه الا صياح
المجوز « شانتو » بين الحين والآخر ، وكأنه صيحات حيوان يحتضر
.. وقد ظلت الصيحات ترتفع وتترايد حتى ابتلعت كل صوت آخر!
وشعرت مدام « شانتو » بالندم الشديد على تهورها في الحديث
مع « بولين » وأدركت أنها ارتكبت خطأ لن يسهل اصلاحه ، وفزعت
في أعماق نفسها من مجرد التفكير في أن « بولين » قد تنفذ تهديدها !
انها فتاة عنيدة .. ومن الممكن جدا أن تتركب رأسها وتخرج من
البيت فاذا حدث ، ماذا سيقول الناس عنها وعن زوجها ؟ أية
شائعات سوف تملأ المنطقة عندما تخرج الفتاة وتحدث الناس بكل
ماحدث .. ولعلها تلوذ ببيتالدكتور « كازينوف » .. فأية فضيحة
تنتظر الاسرة عندئذ ؟ .. وكيف يكون الحال اذا عرف الناس أن
الاسرة بعثرت أكثر من نصف ثروة الفتاة التي لجأت اليها ووضعت
نفسها وثروتها بين أيديها ؟ !

ونظرت الى « لويز » ثم قالت وقد اندفعت نيران غضبها مرة
أخرى :

– كفى بكاء يا عزيزتى « لويز » هل رأيت المأزق الذى نحن فيه بسبب طيشها وسوء تصرفاتها ؟ .. هكذا الحال دائما ، فمنذ أن جاءت للإقامة معنا ونحن لا نعرف للراحة مذاقا

وقالت « لويز » أخيرا وهى تتخلص من يدي مدام « شانتو » :
– أرجوك .. أرجوك .. دعيني أنصرف .. لسوف أكون شقية جدا لو بقيت .. لقد أخطأت حقا .. ما كان ينبغى أن يحدث هذا .. يجب أن أمضى فورا ..

– لا .. لا .. ليس الآن .. انتظرى هذه الليلة فقط . لسوف أرسل لأبيك لكى يأتى ويصحبك ، ولن يقول له أحد شيئا بطبيعة الحال .. انتظرى لحظة ، لسوف أضع وأرى هل هى تجمع ملابسها حقا ..؟

وتسللت مدام « شانتو » الى باب غرفة « بولين » ، وأرهفت السمع .. ولم تلبث أن سمعت وقع خطواتها وهى تروح وتجيء فى الغرفة ، وصرير الادراج وهى تفتح وتغلق بعنف .. وفكرت لحظة فى أن تدخل وتهدىء نائبة « بولين » وأن تزيل الخلاف بالدموع والصفح .. ولكنها خشيت أن تتلعثم وتشعر بالذلة والامتهان أمامها ، فانصرفت عن الباب وهى تحس بمزيد من الحقد عليها !

ومضت هذه المرة الى المطبخ حيث كانت « فيرونিকা » تنظف الاوعية النحاسية ، وتدمدم لنفسها بغضب كالمعتاد ، وقالت مدام « شانتو » لها :

– هل سمعت بما فعلته الآنسة « بولين » ؟

وأطرقت « فيرونিকা » برأسها على الاوعية ، متظاهرة بالانهماك فى عملها .. ومن ثم استطرقت مدام « شانتو » قائلة :

– ان الحياة معها أصبحت لا تطاق .. انها لا تريد حتى أن تتفاهم معى .. تصورى انها تجمع ملابسها الآن لكى تغادر البيت ، ما رأيك لو صعدت اليها لمحاولة التفاهم معها يا « فيرونিকা » ؟

ولما ظلت « فيرونিকা » سادرة فى صمتها ، قالت مدام « شانتو » :
– ماذا بك ؟ .. هل أصبت بالصمم ؟ ! .. لماذا لا تجيبين ؟ !

وفجأة قالت « فيرونিকা » بصوت ينم عن الغضب المكبوت :
– اذا كنت لا أجيب ، فلأنى لا أريد أن أجيب .. أما الآنسة

« بولين » فان لها الحق كله فى الخروج من البيت ، ولو كنت فى مكانها لما فعلت غير هذا . . بل لغادرت هذا البيت منذ امد بعيد
فحملت مدام « شانتو » فى وجهها ، وقد فغرت فاها من فرط
الدهشة والاستياء . . أما « فيرونیکا » فقد استطردت تقول :
- اننى لست مخلوقة من جماد يا سيدتى . . وأصارك القول ،
اننى لم أكن أحمل للآنسة « بولين » أى حب يوم جاءت للاقامة معنا
. . ولو كان الامر ممكنا لقدفت بها الى البحر ، ولكن بعد أن رأيت
كل ما حدث لها ولأموالها ، فانى لا أتمالك نفسى الآن من العطفعليها،
والثورة من أجلها . . بل انى أتمنى لو استطعت أن أضربكم جميعا . .
نعم . . يمكنك أن تطردينى ، فلن يهمنى هذا بعد . حسبى ان اجعلها
تعرف حقيقة شعوركم نحوها . . حسبى أن اجعلها تدرك الى أى حد
قابلتم احسانها بالاساءة . . !

فقالت مدام « شانتو » وقد ازداد غضبها من هذا الموقف الجديد:
- أرجوك أن تكفى عنا لسانك أيتها المجنونة . .

- لا . . لن أكف عن الحديث . . لقد زاد الامر عن حدوده . .
أتسمعين . . اننى أكاد أختنق من فرط الغضب والحنق منذسنوات
ألم يكفكم ما أخذتموه من أموالها . . هل تصرون على أن تقطعوها أربا !
اننى اعرف كل شىء اعرف كيف كنتم تدبرون المؤامرات ضدها ،
ولكن المسيو « لازار » قد يكون بريئا ، وان كان هذا لا يعفيه من
المسئولية . . انه لن يتردد فى أن يطعنها فى عواطفها وفى قلبها اذا
وجد فى هذا فائدة له . انه يعيش لنفسه ، ولا يهمله الا ان يعيش على
حساب غيره . . !

وبذلت مدام « شانتو » جهدها للسيطرة على نفسها والتحكم فى
أعصابها ، وقالت :

- اذن فلن تصعدى وتتحدثى اليها ؟ . . ان هذا فى مصلحتها ، لن
كنت تريدين هذه المصلحة

وصمتت « فيرونیکا » برهة . . ثم قالت فى يأس :

- حسنا . . لسوف أصعد اليها . . يجب أن أتصرف بعقل وحكمة
. . ان الاستسلام للغضب لن يجدى شيئا . .

ونظمت يديها بهدوء مصطنع . . هذا بينما كانت صيحات العجوز

« شانتو » تتردد معلنة عن آلامه العنيفة . وخطرت ببال مدام « شانتو » فكرة جعلتها تقول لـ « فيرونیکا » عندما همت بالصعود :
– قولى لها انه ليس من الواجب أن تترك البيت وعمها « شانتو »
يعانى هذه الآلام المبرحة ..

فقالت « فيرونیکا » وهى تهز كتفيها :
– ان سيدى قد اعتاد على هذا الصباح سواء كان يعانى نوبة آلام
أم لا ..

وصعدت « فيرونیکا » .. ولكنها ما كادت تصل الى الطابق الثانى
حتى رأت « بولين » هابطة تحمل صرة ملابسها الضرورية ، تاركة
بقية الملابس الى « مالفوار » – صاحب مركبة السفر – ليحمل الباقي
اليها فى اليوم التالى . وكان وجهها الشاحب ينم عن الاصرار والعناد
.. ومن ثم كانت تقول لـ « فيرونیکا » ردا على توسلاتها :

– لا .. اما أن تخرج هى من المنزل ، أو أخرج أنا ..

ولما أعلنت « فيرونیکا » لمدام « شانتو » هذا الاصرار ، لم يسع
هذه الا أن تستسلم لرغبة « بولين » ، وقررت أن تصحب « لويز »
الى خالتها مدام « ليونيه » فى أرومانش ، حيث تزعم لها ان « لويز »
لم تستطع البقاء مع أسرة « شانتو » بسبب ازدياد حالة العجز
سوءا ، وأنها سوف تعود لتأخذها بمجرد أن تتحسن حالته

ولما صحب لازار والدته و « لويز » الى المركبة التى ستحملهما
الى أرومانش ، قالت « فيرونیکا » بصوت مرتفع لـ « بولين » :
– انزلى الآن يا آنسة « بولين » .. لقد ذهبت « لويز » ..

وخيم الصمت الثقيل على البيت ، ولم يكن يقطعه كالمعتاد الا
صيحات العجز « شانتو » .. وفيما كانت « بولين » تهبط الدرجات
الاخيرة الى الصالة ، عاد « لازار » بعد أن ركبت أمه و « لويز »
المركبة ، ومن ثم وقف أمامها وجها لوجه برهة وجيزة . وكانت هى
تنتفض من فرط الغضب والثورة ، وكان هو يتمنى لو استطاع أن
يسألها الصفح والغفران ، ولكن دموعه طفرت من عينيه ، وعجز لسانه
عن النطق بكلمة .. فاندفع صاعدا الى غرفته منكس الرأس مفعم
النفس بالندم والخجل ..

وبوجه شاحب ، وفم مغلق ، دخلت « بولين » الى غرفة عمها ،

لتؤدي واجبها نحوه ..

وعادت مدام « شانتو » في مساء اليوم نفسه ، قبل موعد العشاء بلحظات .. واستدعت « فيرونیکا » لتساعدتها على خلع حذائها لأنها كانت تشعر بألم شديد في قدمها اليسرى ..

وقالت الخادم وهي تنظر الى القدم :

– لا عجب أن تشعرى بالألم فيها ، فانها منتفخة قليلا ..

ونظر « لازار » الذي كان قد أقبل في تلك اللحظة ، الى قدم والدته وقال :

– لا شك أنك سرت طويلا على قدميك اليوم يا أماه ..

ولكن مدام « شانتو » قالت انها في الواقع لم تمش الا قليلا ، وان هذا الانتفاخ لا بد قد تسبب من ضيق الحذاء ، لأنها بدأت تشعر بزوال الألم بمجرد أن خلعتة عن قدمها ..

وفي اليوم التالي ، زال كل أثر لانتفاخ قدميها ..



ومر أسبوع لم يحاول أحد خلاله أن يشير الى « لويز » أو الى ما حدث من بعيد أو من قريب ، بل لقد حاول الجميع أن يستأنفوا الحياة وكأنما لم يحدث شيء يعكر صفوها ..

وكان « لازار » في أول الامر ، يشعر بهول ما ارتكبه في حق « بولين » وكان كلما فكر في طهارتها ، واستقامتها ، وتمسكها بالقيم والمبادئ المثالية ، يزداد شعوره بالخجل والندم والفضب . وكان غضبه على نفسه يزداد يوما بعد يوم ، كلما وجد أنه عاجز عن تبرير أخطائه ، وطلب الصفح والغفران منها . كان يتساءل دائما : لماذا لا يشرح لها الامر كله بصراحة ، ويطلب منها أن تصفح عنه ؟ لماذا لا يقول لها ان الامر كله لا يعدو نزوة طارئة ، وأن عواطفه الحقيقية العميقة لا تترنن الا فيها ؟ .. ولكنه كان دائما يشعر بالارتباك وبالخوف من أن يذل نفسه أمام « بولين » !

وكان هناك احساس آخر وراء عجزه عن طلب الصفح من « بولين » .. كان يشعر انه سوف يخدعها لو قال لها انه لا يفكر في « لويز » وأن الامر كله نزوة عابرة حقا .. ذلك أنه كان يشعر أن عواطفه نحو « لويز » لا تزال مشبوبة ، وأن اشتهاه لها لا يزال قويا ، بل انه

كثيرا ما كان يذهب الى أرومانش ليلا ويطوف بالببيت الذى تقيم به « لويز » مع خالتها دون أن يجد الشجاعة الكافية للدخول !
والواقع أنه كان حائرا فى عواطفه . . كان يشعر أنه يحب « بولين » من أعماق قلبه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يشتهى لويز . . كان طيفها دائما امامه ، يحجب الماضى ، ويضع امام المستقبل ستارا كثيفا أما « بولين » فقد كانت تنتظر منه أن يطلب صفحها . . وكانت فى أول الامر قد آلت على نفسها ألا تغفر له اطلاقا ، ولكنها - مع مرور الايام - بدأت تشعر بالاليم لأنه لم يطلب مغفرتها . وكانت تتساءل دائما : لماذا لم يعد يتحدث معها بنفس الالفة التى اعتادت عليها ؟ لماذا يحاول دائما أن يتجنبها ؟ لماذا يقضى معظم أوقاته خارج البيت ؟ . . انها على استعداد لأن تنصت اليه ، وتنسى كل شىء اذا هو أظهر الشىء القليل من الندم والتوبة . . !

ولكن الايام ظلت تنصرم ، وأهل البيت جميعا يعيشون على أعصابهم . . انهم يتبادلون الاحاديث العادية ، ويجتمعون على مائدة الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، بل ويتبادلون القبلات السريعة عندما يفترقون للنوم . . ولكن وراء هذا كله كان ثمة احساس بالبؤس والشقاء . . ف « لازار » يدرك أنه أخطأ ، وأنه يتمنى لو أصلح هذا الخطأ ، وأنه لا يزال يحب « بولين » وان كان لا يزال أيضا يشتهى « لويز » و « بولين » تزداد ألما وعذابا كلما استمر « لازار » على صمته واجتنابه لها . . ومدام « شانتو » تكاد تنشق من فرط الحنق لأن مناوراتها للظفر ب « لويز » وبشروتها لابنها « لازار » قد باءت بالفشل . أما العجوز « شانتو » فكان مشغولا عن كل شىء بالام النقرس ، وبالاشتهاء الدائم الى اطيب الطعام والشراب . أما « فيرونیکا » فكانت جدران المطبخ تهتز كالمعتاد ازاء غمغمتها ودمدمتها وزفرات غضبها الابدى . .

وفى ذات يوم ، نسى الجميع هذا كله أمام سقوط مدام « شانتو » مريضة بهبوط مفاجىء بالقلب . . ورغم كل ما بذله الدكتور « كازينوف » لعلاجها وانقاذها ، ورغم كل ما بذلته « بولين » فى ترميضا ، ورغم ، كل ما سكبته « لازار » من دموع من أجلها ، فقد ظلت حالة المسكينة تزداد سوءا حتى لفظت أنفاسها بين أيدي « بولين » و « فيرونیکا » ذات مساء . .

وفي صباح اليوم التالي ، جلس العجوز على مقعده في الشرفة الكبيرة ، يشيع بنظراته المبللة بالدموع تابوت زوجته وهو يحمل من الكنيسة الى العربة التي ستحمل جثمانها الى مدافن الاسرة في مدينة « كان » ..

وقال العجوز بصوت واهن لـ « فيرونیکا » الواقفة بجانبه :

ـ ألن تذهبي معهم يا « فيرونیکا » ؟

فقالت المرأة وهي تمسح دموعها بمنديلها :

ـ لا .. لقد طلبوا منى أن أبقى معك ..

ودقت أجراس الكنيسة .. وتحركت المركبة ، حاملة شريكة حياة

العجوز « شانتو » الى مثواها الاخير ..



الفصل العاشر

مزيج من الإحسان

كان لوفاة مدام « شانتو » أثرها العميق في نفوس بقية أفراد الاسرة .. ذلك أن خوف « لازار » من الموت .. من العدم ، ازداد حتى كاد أن يفدو مرضا مزمنا لا يرجي له شفاء . وقد بلغ من تأثره انه أغلق غرفة النوم التي ماتت فيها أمه ، وأمر الا يفتحها أحد ايا كان السبب ..

وكثيرا ما كان يردد قائلا لـ « بولين » وهو في حالة عنيفة من اليأس والحيرة :

— لماذا ولدنا ؟ ولماذا نعيش ؟ .. وما فائدة الاستمرار في الحياة مادام مصيرنا الموت .. العدم ..؟!
وكانت « بولين » تقول له بهدوء :

— لو كنت تؤمن بوجود حياة أخرى بعد الموت ، لما فزعت من الموت الى هذا الحد ، ولما رددت هذه الاسئلة .. تصور مبلغ سعادة الانسان عندما يلتقى في الحياة الاخرى بأحابه الذين فقدهم في هذه الحياة ؟

وكانت « فيرونيكا » تقوم بأعمالها المنزلية وهي في شبه ذهول وحيرة .. انها لا تكف عن الغمغمة والدمدمة كالمعتاد ، وهي لا تتردد في الثورة في وجه أى انسان يحاول ان يوجهها أو يعاقبها أو يبين لها خطأها .. ولكنها كانت في الوقت نفسه تذرف الدموع كلما ورد ذكر مدام « شانتو » عرضا أثناء الحديث ، ثم تنطلق عائدة الى المطبخ بنظرات حائرة متسائلة :

— اذا كان الموت هو النهاية الحتمية ، فلماذا تطول أعمارنا في هذا الشقاء ؟!

اما العجوز « شانتو » فكان يوزع حياته بين نوبات النقرس ، وبين المطالبة بنصيب أكبر من اللحم والخمر ، وبين لعب الشطرنج مع الاب « هورتير » والتمتع بأهسية سعيدة كل يوم سببت مع الدكتور « كازينوف » والاب « هورتير »

اما « بولين » ، فقد ظلت تعيش كالمعتاد ، تبذل من نفسها ومن جهدها ومن مالها للجميع ، محاولة ان تستمد السعادة من اسعاد الغير ، موقنة تماما ان الانسان لم يخلق في هذه الحياة الا ليخفف الآلام عن غيره من الناس ، والا لينشر السعادة بين الذين يحيطون به ..!

وعلى هذا النحو ، ظلت تداوم على تقديم هباتها وجانب من مالها الى فقراء القرية ، عن طريق ابنائهم وبناتهم الذين اعتادوا ان يأتوا اليها بعد ظهر يوم السبت من كل اسبوع . ولما كانت هي المشرفة على ميزانية البيت بعد وفاة مدام « شانتو » فقد واجهت موقفا عصيبا عندما وجدت ان دخل الاسرة لم يعد يزيد على ألفين وخمسمائة فرنك في العام ، بما في ذلك ايراد البقية القليلة من ثروتها ..

وصار همها الاساسي طيلة الاسبوع هو كيفية ادخار مبلغ من المال لتوزعه على الفقراء كالمعتاد .. هذا عدا ما كانت تصنعه لهم من جوارب صوفية وصداري ، وما تقدمه اليهم من ادوية وعقاقير ، وما تبذله من جهود للاحاق المرضى بالمستشفيات ، واليتامى بالملاجيء ، والعاقلين بالاعمال المختلفة ..

وقد استطاعت في النهاية ان تقنع « لازار » لكي يشاركها في مهمة توزيع الاحسان ، عسى ان يجد في هذا ما يخفف عنه الشعور بالسأم ، وما يحول ذهنه عن التفكير الدائم في الموت .. أو العدم ..!

وهكذا كان الاثنان يجلسان في الساعة الرابعة من مساء يوم السبت في كل اسبوع ، حيث يستقبلان اصدقاءهما الصغار من القرية ، ويوزعان عليهما الهبات المختلفة .. وكان هؤلاء الصغار عادة أطفالا يرمزون الى القذارة والجهالة والبؤس وسوء الطباع .. وكأنهم نباتات « شيطانية » لا يعرف احد كيف ظهرت ولا لماذا تبقى على سطح الارض !

وفي مساء ذات سبت ، كانت السماء تمطر بفزارة ، فاضطرت « بولين » الى استقبال اصدقائها الصغار فى المطبخ ، حيث أجلسهم « لازار » صفا واحدا على دكة خشبية مستطيلة ..

ولما رأت « فيرونیکا » هذا ، قالت لـ « لازار » هامة وفي صوت ينم عن الغضب المكبوت :

– ما هذا يا سيدى ؟.. أتريد الأنسة ان تجتمع بهؤلاء الشياطين الصغار هنا ؟.. انى اخشى ان نجد بعضهم فى الحساء الليلة !!

وكانت « بولين » فى تلك اللحظة قد اقبلت ومعها كيسها الملىء بالنقود الفضية الصغيرة ، وبالادوية والعقاقير وارغفة الخبز والحلوى والجوارب الصوفية .. ولما سمعت حديث « فيرونیکا » قالت بآسفة :

– يمكنك ان تمسحى المطبخ بعد انصرافهم يا « فيرونیکا » ... لا تنسى ان الجو ممطر جدا فى الخارج ، وليس من المعقول ان نفرقهم بالمطر ونحن نحسن اليهم !

والواقع ان الفوج الاول من الاطفال الذين دخلوا المطبخ كانوا غارقين فى مياه المطر .. كانت القطرات تتساقط من أسماهم البالية على أرضية المطبخ وتنشر عليها القذارة والبلل ، مما ضاعف من حنق « فيرونیکا » التى كادت ان تخرج عن طورها عندما طلبت منها « بولين » ان توقد النار فى المدفأة حتى يمكن تجفيف ملابس الاطفال قليلا ..

وسرعان ما اصطف الاطفال والغلمان بالقرب من المدفأة ، وهم يركزون نظراتهم الجائعة على بقايا الاطعمة ، وعلى حزم الجزر الاصفر الموضوعة على مائدة المطبخ غير البعيدة عنهم

وقالت « فيرونیکا » وهى سادرة فى دمدمتها :

– اننى لا ادرى الى متى تحسنين الى غلمان بلغوا سن الرابعة عشرة ، وكان يجب عليهم ان يلتمسوا الرزق بالعمل .. انهم يا آنسة يستغلون عطفك لكى يركنوا الى التسكع بدلا من السعى فى سبيل الرزق ..

ولم يسع « بولين » الا ان تسكتها قائلة :

– كفى يا «فيرونيكا» .. ان بلوغ هؤلاء الاطفال سن العمل لا يمنعهم من الشعور بالجوع .. وطالما انهم يأتون الى ، فهذا يعنى انهم جائعون

وجلست الى مائدة صغيرة وضعت عليها المال والهدايا ، وفجأة قال « لازار » الواقف بجانبها حين وقعت عيناه على ابن آل «هوتلارد»:

– ألم أمنعك من العودة الى هنا ايها الافاق الكسول ؟ .. الا يخجل والداك من ارسالك للتسول وانتم احسن حالا من غيركم ؟ .. الا تتركون هذا الاحسان لمن هم أحق به منكم ؟

وبكى الفلام – وكان نحيل الجسم فى نحو الخامسة عشرة من عمره – وقال :

– انهما يضرباننى لكى آتى اليكم .. ان ابى يضربنى بينما تجرجرنى زوجته بحبل الى خارج البيت قائلة انها لن تسمح لى بالدخول الا اذا أحضرت شيئا من الطعام معى ..

ثم رفع ملابسه لكى يكشف لهما عن اثار الضرب وسججات الحبل وكانت زوجة أبيه هى خادمتة السابقة ، فقالت «بولين» لـ «لازار» برفق :

– ارجو ان تضع على جروحه بعض المطهرات والمراهم ..

ثم قدمت للفلام قطعة من ذات الخمسة فرنكات قائلة :

– اعطهما هذه القطعة ، وقل لهما اننى لن أرسل اليهما أى شىء اذا ضرباك مرة اخرى ..

وكان الصغار الآخرون قد بدأوا – بعد ان شعروا بالدفء – يتشاجرون ويلكز بعضهم البعض ، هذا بينما استطاع طفل صغير منهم ان يختلس جزرة وراح يلوكها بشراهة .. وقالت « بولين » لاحد الفلمان :

– اسمع يا كوش .. هل اخبرت والدتك اننى حجب لها مكانا فى مصحة بابو للأمراض المزمنة ؟!

وكانت زوجة كوش ، تلك المخلوقة الدميمة البائسة التى هجرها زوجها – والتى أخذت تحترف الدعارة لتأكل – تعيش فى كهف صغير على الشاطئ ، ورغم انها مقعدة بسبب كسر ساقها ، فقد ظلت تمارس حرفتها الشائنة مع كل راغب نظير مبالغ تافهة تشتري

بها الخبز والخمر ..!

وقال الفلام بصوت بفيض اجش :

– نعم يا آنسة .. لقد أخبرتها .. ولكنها لا تريد ان تذهب !

وكان غلاما في نحو السابعة عشرة ، قوى الجسم ، جرىء السميت ،
جاحظ العينين . وقد قالت له « بولين » في دهشة حين سمعت
حديثه :

– ماذا تعنى ؟

وصاح « لازار » غاضبا :

– يقول انها ترفض الذهاب الى المصححة ؟ .. نعم .. نعم ..
وانت ايضا لا تريد ان تكسب رزقك من عمل شريف .. لقد طلبت
منك هذا الاسبوع ان تأتى وتساعدنى فى زرع الحديقة الخلفية ، ولكنك
لم تفعل ..!

فتمايل الفلام باستهتار وقال :

– لم يكن لدى وقت ..

ولما رأت « بولين » ان زمام الغضب سيفلت من « لازار » تدخلت
قائلة :

– اجلس ، لسوف نتحدث فى هذا الشأن فيما بعد .. حاول ان
تفكر فى قبول هذا العمل والا فسوف اغضب منك ..

وجاء بعد ذلك دور ابنة آل « كونين » .. وكانت قد بلغت الثالثة
عشرة ، وبدت جميلة رشيقة ، وان كانت نحيلة عجفاء .. وقبل ان
يسألها احد ، انطلقت تشكو سوء الحال بعبارات سريعة ، قائلة ان
اباها قد فقد القدرة على الحركة تماما ، وانه لم يعد قادرا حتى على
الحديث الا غمغمة ، وان عشيق أمها – ذلك المدعو كوش الذى هجر
زوجته – لا يكف عن ضرب أبيها حتى كاد ان يقتله فى هذا
الصباح !

واستطردت الفتاة تقول :

– وكذلك امى تساعد عشيقها على ضرب ابى .. وفى المساء تنهض
مع عشيقها وتسكب الماء البارد على جسم ابى لانه يقلقهما بتأوهاتة ،
ولو أنك يا آنسة ترين كيف أصبح عاريا ..

وأسكتتها « بولين » – بعد ان طلبت من « فيرونیکا » ان تأتى

عليها بملاءتين - قائلة .

- كفى .. كفى ..

وقال لها « لآزار » وهو يحدجها بنظراته :

- وانت أيضا ؟ .. الا تساعدن امك وعشيقها على تعذيب ابيك ؟

ثم ماذا كنت تفعلين - ذاك اليوم - فى قارب « هوتلارد » مع رجل
« نطلق هاربا عندما رآنى مقبلا نحوكما .. تكلمى ..

فضحكت الفتاة باستهتار وقالت :

- انه لم يكن رجلا غريبا .. انه هو نفسه « كوش » عشيق امى

.. لقد دفعنى رغما عنى الى ذلك الزورق !

فقال « لآزار » باشمئزاز :

- كاذبة .. لقد رأيتك وانت تعانقينه .. يبدو انك بدأت احتراف

هذه المهنة الملعونة فى سن مبكرة اكثر مما يجب ..

ووضعت « بولين » يدها على ذراع « لآزار » .. فقد كان بقية

الاطفال الاخرون ينصتون باهتمام ، وهم يتضاحكون خفية . اما

« لآزار » فقد راح يتساءل فى نفسه عن كيفية الارتفاع بمستوى هؤلاء

الناس الذين يعيشون - رجالا ونساء وصفارا - حياة حيوانية

دنيئة !

اما « بولين » فقد اعطت الفتاة الملاءتين وزجاجة خمر ، واخذت

تنصحها بهدوء وهى تبين لها مدى الاخطار التى سوف تتعرض لها

اذا هى استمرت فى حياتها على هذا النحو

وقال « لآزار » لابنة آل « برون » بصوت الذى يريد ان يفرغ من

هذه المهمة بسرعة :

- لقد فقد والداك رشدهما امس من فرط الاسراف فى شرب الخمر

وقيل لى انك كنت اكثر الثلاثة سكرا ..!

فردت الفتاة قائلة بلهجة تنم عن الكذب :

- لا ياسيدى .. لقد كنت اعانى فقط من الصداع ..

ووضع امامها اناء به كرات من اللحم المفرى ، وقال لها :

- كلى هذا امامنا .. انك تعانين من الانيميا ، وان اسرافك فى شرب

« الخمر سوف يزيد حالتك سوءا ..

وبعد ان اكلت الفتاة ثلاث كرات ، قالت :

– هذا يكفي .. ليس لى شهية لمزيد ..

فقلت لها « بولين » وهى تمسك زجاجة الشراب المقوى :
– اذا لم تأكلى بقية اللحم ، فلن اعطيك نصيبك من هذا الشراب
ولم يسع الفتاة الا أن تطيع الامر وعيناها لاتفارقان زجاجة
الشراب . فلما فرغت قالت متلهفة :

– أرجوك أن تعطينى الزجاجة كلها حتى لا أضطر للحضور
كل يوم ..
فقلت « لازار » :

– لكى تشربها دفعة واحدة وتسكرى .. !
واستمرت مهمة عملية توزيع الهبات ، ولم يبق فى النهاية غير
ابنة آل « نورمال » التى كانت جالسة فى الركن بجوار المدفأة ..
وكانت فى العاشرة من عمرها ، ضئيلة الجسم كأنها قزم .. !
ولما استدعتها « بولين » انطلقت الطفلة تقول بلهجة المتسولين :
– الرحمة يا آنسة .. ان أبى فى السجن ، وأمى فى المستشفى ،
وجدى مريض .. وأنا لا أجد ما آكله ..
فقال « لازار » غاضبا :

– كفى كذبا أيتها الشريرة .. ان أباك فى السجن بتهمة تهريب
البضائع ، ويوم كسرت ساق جدك كان يسرق المحار من مصايد
الحكومة .. أما أمك فهى أشهر سارقة دواجن فى فيرمونت ..
أتحسبن أننا لانعرف كل هذه الحقائق عنكم ؟
ولكن الطفلة استطرقت تقول وكأنها لم تسمع شيئا :
– الرحمة يا آنسة .. اننا سنموت جوعا اذا لم تعطنا اليوم
شيئا ..

فقلت لها « بولين » وهى تعطيها قطعة نقود :
– كفى .. كفى .. خذى هذه وانصرفى
واختطففت الطفلة قطعة النقود ، واندفعت الى الخارج وقبل ان
تبتعد ، اكتشفت « فيرونیکا » اختفاء الاناء الفضى الصغير الذى
اعتادت « بولين » ان تشرب فيه الشاي ، ومن ثم هتفت قائلة وهى
تسرع للحاق بالطفلة :

– السارقة اللعينة .. لقد سرقت اناءك الفضى يا آنسة .. !

وبعد لحظات ، عادت « فيرونیکا » بالاناء وهى تلهث قائلة :
– لقد وجدته بين أسمال هذه اللصة اللعينة .. ألم اقل لك
يا آنسة ان عطفك على هؤلاء الشياطين لن يؤدي الا الى سرقتنا ؟
ولم تحزن « بولين » لما حدث بقدر حزنها لتأثير ذلك كله فى نفسية
« لازار » .. فقد بدا على وجهه ما ينم عن الامتعاض الشديد
والاشمئزاز البالغ واليأس الممض من اصلاح امر هؤلاء الاوغاد .
وكانت تعلم انه لم يكن يشاركها فى توجيه أولئك الاطفال ورعايتهم
الا رغبة فى ارضائها .. ذلك لانه لم يكن يؤمن بواجبات المرء نحو
غيره من البؤساء والمحرومين . أما هى ، فكانت تقوم بهذه المهمة
بدافع من حبها للناس جميعا ، وعن ايمان عميق بأن الانسان لم
يخلق لنفسه فقط .. وقد حدث فى النهاية ماكانت تخشاه ، ذلك
ان « لازار » قال لها بعد ان غسل يديه انه لن يشترك معها فى هذا
العمل ، وأنه يفضل أن يسحق تحت قدميه هذه الحشرات الآدمية
المؤذية بدلا من أن يطعمها ويساعدها على الاستمرار فى حياة كلها
خطيئة وشر ..

وقد أعرب عن شعوره فى مساء ذلك اليوم نفسه ، حين قال وهو
جالس معها على انفراد :

– اننى أشعر كأنى خرجت فورا من بالوعة مجارى .. !

ثم أردف متسائلا :

– اننى لا أدرى لماذا تحبين هؤلاء الشياطين ؟!

فردت قائلة بهدوء :

– اننى أحبهم عطفًا عليهم ورحمة بهم .. ألا تشعر انت بالرحمة
لكلب ضال شريد فتلتقطه من جانب الطريق وتعنى به ؟!

فهز كتفيه وقال :

– ان الكلب ليس مخلوقا بشريا .. !

فردت قائلة :

– ان الانسان أحق بالرحمة من الحيوان ، لانه أكثر احساسا
بالبؤس والشقاء .. ثم ان الرحمة بالغير هى غاية فى ذاتها .. حقا
انه من المولم للنفس الا يحاول هؤلاء البؤساء اصلاح شأنهم ، لانهم
لو حاولوا هذا لكانوا اقل نؤسا وشقاء .. ولكن يكفينى انى أقدم

لهم الدفء والطعام . ان هذا وحده يجعلنى أشعر بالسعادة ..
وانى أرى من واجبى أن أقلل الشقاء فى العالم بقدر ما أستطيع .
ولو أن كل انسان يفعل هذا ، لما كان هناك شقاء بين البشر .. المهم
الا ينتظر الانسان أى جزاء على مايقدمه لغيره من خير ..
وبعد برهة صمت ، قالت فى أسف :

- اننى أرى ياعزيزى أن مشاركتك لى فى هذا العمل تزيد من
شعورك بالضيق والملل .. ولهذا فلن اطالبك بالاستمرار فى هذه
المشاركة حتى لاتزداد احساسا بالقسوة على هؤلاء المساكين !

ومما زاد آلام « بولين » من سلوك « لازار » أنه ظل يتباعد
عنها ، ويحاول جاهدا أن يتجنب البقاء معها فترات طويلة ، سواء
داخل البيت أو خارجه . وقد شعرت هى بالعجز عن اخراجه من
عالمه الكئيب الضيق .. عالم التشاؤم والشعور الدائم بالملل . وكثيرا
ماحاولت أن تجد تبريرا مقنعا لاكتئابه الدائم .. وكلما خطر ببالها
أنه يشعر بالحنين الى « لويز » أحست كأن أصابع باردة تعتصر
قلبها ، وهزت رأسها بعنف ، ولجأت الى كبرياتها الانثوى ، وآلت
على نفسها أن تضاعف جهدها لتجعله سعيدا ولو ضحت بسعادتها
هى اذا لزم الامر !

وفى ذات ليلة ، قال « لازار » عبارة قاسية وهو يتشاءب :

- ما أشد احساس المرء بالعزلة هنا .. !

ونظرت « بولين » اليه فى دهشة ، واحست مرة أخرى ، كأن أصابع
باردة تعتصر قلبها .. !



تضحية قلب

عبثا حاولت « بولين » أن تخفف عن « لازار » أو تضفى على حياته جوا من السعادة والرضا .. لقد ظل يعيش فى حالة من الاكتئاب والقلق ، كأنه انسان تائه فى الحياة ، يبحث عن شىء أو يحاول أن يطمئن الى شىء ، ولكنه لا يجد ما يبحث عنه أو يطمئن اليه وكان يردد كثيرا انه لا بد ان يفعل شيئا او يقوم بعمل ما ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى حالته من القلق والحيرة .. لقد حاول أن يستأنف هوايته للموسيقى ، وأن يضع التكملة لسيمفونيته « جنة الارض » بعد أن غير اسمها الى « العذاب الابدى » ولكنه لم يلبث أن سخر من محاولاته ، ثم عمد الى النظم وقال انه سيضع ملحمة شعرية يهز بها العالم .. ولكنه لم يلبث أن نفذ يديه من الشعر بعد أن كتب بضعة أبيات بلا وزن أو قافية .. وقال انه خلق ليكون كاتباً روائياً ، أو كاتباً مسرحياً ، وانشغل بضعة أسابيع فى قصة مطولة ، إلا انه لم يلبث - كالمعتاد - أن نفذ يديه قائلاً ان هذا كله عبث لا جدوى منه !

وفى ذات يوم صعدت « بولين » الى غرفته لتحدثه فى امرها ، فوجدته واقفا وظهره الى الباب ، يتأمل شيئا بين يديه .. ولما أحس بها ، أخفى ذلك الشىء بسرعة ، ولكنها لم تبال بالامر ، وحاولت أن تضحك معه قائلة :

- ما هذا الذى تخفيه ؟ .. ذكريات غرام ؟!

ولم تكن تدرى فى تلك اللحظة انها لم تجاوز الحقيقة كثيرا .. ذلك أن هذا الشىء الذى أخفاه « لازار » بسرعة كان قفازا ل « لويز » .. نسيته عند انصرافها العاجل من البيت ، وكان

القفاز لا يزال يحمل عطر الهليوتروب النفاذ الذى اعتادت « لويز »
ان تتعطر به دائما ..

كان « لازار » من فرط شوقه الى « لويز » يلجأ بين الحين والآخر
الى هذا القفاز الذى عثر عليه مصادفة ، فيقلبه بين يديه ، ويرفعه
الى أنفه وشفتيه ، ثم يعيش لحظات قد تمتد الى ساعة أو أكثر في
خيال مع « لويز » .. وكان بعد كل مرة يهبط الى صالة الطابق
الارضى متخاذلا ، منهوك القوى ، مكتئب الوجه ، ملول النفس

وكانت « بولين » تقول لنفسها كلما شعرت أن مجهوداتها لنشر
ظلال السعادة على البيت تأتي بنتيجة عكسية :

- ترى ماذا جرى ؟ .. ان كلا منا يحب الآخر ، ومع ذلك فنحن
غير سعداء .. ان عواطفنا تسبب لنا التعاسة بدلا من السعادة !
وحاولت جاهدة ان تدرك السبب .. وخطر لها ان هذا كله
راجع الى التنافر الواضح فى طبيعتها وطبيعة « لازار » .. فبينما
هى تحاول ان تعيش لغيرها وتستمد سعادتها من سعادة الناس
حولها ، كان هو يعيش فى قوقعة مغلقة من الانانية والانفرادية
والسلبية ..

هل تتخلى عن طبيعتها لتغدو مثله حتى تتلاءم معه ؟ .. انها
لا تستطيع ان تفعل هذا حتى لو حاولت . اذن هل تحاول ان تطرد
اشباح الشقاء المخيمة على البيت برنين ضحكاتها ، واضواء تفاؤلها
وابتهاجها ؟ انها بعد ان حاولت هذا ، أصبحت عاجزة حتى عن
اطلاق ضحكة خالصة من صميم قلبها .. بل ، على العكس ، لقد
توترت أعصابها هى أيضا ، وصارت تفضب من « فيرونیکا » لاي
سبب ، ومن ثم قالت لها هذه المرأة ذات يوم :

- لقد ساءت الاحوال الى حد لا يطاق .. فاننا نحن الاربعة نكاد
نمزق بعضنا بعضا لاتفه سبب .. فأين هذه الحياة من حياتنا
السابقة مع المرحومة سيدتى التى اشعر الآن بأننا فقدناها حقا ..
والواقع ان أعصاب الجميع كانت تزداد توترا على مر الايام ..
حتى العجوز « شانتو » لم يعد لطيفا مع « بولين » كما كان فى
الاعوام السابقة ، فان اشتداد المرض عليه كان يدفعه الى الغلظة فى
معاملتها تماما كما كان يفعل مع « فيرونیکا » ..

وهكذا أصبحت الحياة في البيت لاتطاق .. !

وقررت « بولين » ذات يوم أن تسحق الشعور بالغيرة في قلبها ، وأن تسأل نفسها « هل من حقها أن تفرض سعادتها على لازار ؟ » انها حقا تريده سعيدا .. ولكنها عاجزة عن تحقيق هذا الهدف ، في قرارة نفسها تشعر انه يعيش في عزلة اجتماعية تملأ نفسه بالشقاء .. فلو أنها - فعلا - أصلحت الامور مع «لويز» واستدعتها للاقامة معهم بين الحين والآخر لامكن ان تخفف من وحشته ، وأن تعيد اليه جو الرضا والابتهاج

ان « لازار » لايزال يحبها .. يحب « بولين » .. انها واثقة من هذا ، ولسوف يزداد حبه لها عندما يعرف « لويز » على حقيقتها .. اما وهي غائبة عنه - رغما منه - فلاشك انه مشوق اليها ، يشتهي أن يراها .. وحتى لو تبين في النهاية أن « لويز » هي الاصلح له ، والاحق بحبه ، فعليها - أي « بولين » - أن تدع له حرية الاختيار ، والا تفرض حبا عليه ايا كانت الاسباب !

وكان من عادة « بولين » ان تذهب الى مدينة « كان » لتتسلم ايراد الاسهم والسندات .. وكانت تذهب في الصباح ، وتعود مساء متعبة وهي تحمل الكثير من الحاجات التي يستلزمها البيت . ولما ذهبت في آخر شهر يونيه من ذلك العام ، تأخرت في العودة مساء حتى استبد القلق الشديد ب « لازار » ووالده . وبعد ليلة قاسية أمضاها الجميع ، قرر « لازار » في صباح اليوم التالي ان يذهب الى « كان » ليرى ماذا حدث ل « بولين » ولكنه ماكاد يهم بمفادرة البيت ، حتى هتفت « فيرونিকা » من خارج الشرفة قائلة :
- هاهي ذي الأنسة قد جاءت في مركبة « مالفوار » .. ان معها شخصا آخر

ولشد ما كانت دهشة « لازار » حين رأى « بولين » تهبط ضاحكة مع « لويز » وكأنهما صديقتان حميمتان .. ومن ثم أسرع عائدا الى أبيه ، وقال له وهو لا يصدق ما رأى :
- لقد صحبت « لويز » معها .. !
وقال العجوز « شاننو » مبتهجا :
- « لويز » ؟! .. ما أحسن ما فعلت ؟ ..

ولما أقبلت الفتاتان إليه ، أحدهما « بولين » فى ملابس الحداد ،
والأخرى فى ثوب صيفى جميل ، أردف فائلا :

- آه .. أخيرا جئت يا عزيزتى « لويز » ؟ اننى لا ادرى لماذا
انقطعت عن زيارتنا كل هذه المدة الطويلة ؟ .. هل أساء اليك
أحد ؟ .. ثم كيف تموت عمك المسكينة دون أن تأتى لمواساتنا ؟ ..
حسنا .. حسنا .. لاداعى للاعتذار .. يكفى أنك جئت اليوم
وكان « شانتو » لا يعرف شيئا مما حدث بين « لويز » و« بولين »
وقبلت « لويز » العجوز « شانتو » لتخفى ارتباكها ، بينما
استطرد هو يقول :

- هل تقابلتما مصادفة ؟!

فقالت « لويز » وهى تلتفت نحو « بولين » بعينين مليئتين
بالدموع :

- لا ياعمى .. لقد جاءت « بولين » لزيارتنا .. وأرجو أن تغفر
لها مبيتها الليلة معنا ، لانى انا التى صممت على استضافتها ..
ولما كانت البرقيات لاتتجاوز بلدة أرومانش ، فقد رأينا أن حضورنا
الآن سيكون أسرع مما لو أرسلنا برقية ..

ثم عادت وقبلت العجوز « شانتو » الذى أعرب عن ابتهاجه
الشديد بحضورها ، والذى قال فى النهاية :

- وماذا عن « لازار » ؟ .. ألا تقولين له شيئا ؟

وكان « لازار » واقفا فى المؤخرة ، يحاول اخفاء ارتبائه بابتسامة
واهنة ، ولا يكف عن التساؤل فيما بينه وبين نفسه : « عجبا ؟ لماذا
أحضرت « لويز » معها ؟ .. أليست هى نفسها غريمته التى أصرت
على طردها من البيت ؟ »

وأفاق من تساؤله على صوت « بولين » وهى تقول له :

- تعال يا « لازار » وقبل « لويز » مادامت هى مترددة ..

ووقفت « بولين » بوجه شاحب ، ولكن بهدوء واتزان ، تنظر
الى « لازار » وهو يطبع قبلة خفيفة على وجه « لويز » .. اما
« فيرونيكا » التى وقفت بباب المطبخ تتأمل ما يجرى أمامها ، فقد
شعرت بالدهشة البالغة تملأ نفسها ، بل لقد خطر لها أن « بولين »
تمادت فى التضحية بنفسها الى حد الجنون !

وتناول الجميع العشاء في تلك الليلة بشهية وابتهاج .. ولم يلحظ العجوز « شانتو » في غمرة سروره ، ما كان يبدو على الثلاثة من توتر عصبى أو تكلف فى المعاملة .. فرغم أن كلا منهم كان يبدو طبيعيا فى تصرفاته ، إلا أنه كان ثمة احساس مشترك بالقلق والحيرة والتساؤل ..

وظل هذا الاحساس سائدا لمدة أسبوع . ولم يجرؤ « لازار » على سؤال « بولين » عن سر احضارها لـ « لويز » .. كان يخشى ان يكون فى الامر مؤامرة لكشف عواطفه .. ولم يخطر بباله البتة انها قررت التضحية بعواطفها - بل وبسعادتها اذا لزم الامر - لكى تتيح له فرصة اختيار الزوجة التى يجب أن يقضى حياته معها . وكان هو - رغم اشتهاؤه العنيف لـ « لويز » - لم يفكر يوما فى أن يتخذها زوجة له .. وعلى هذا النحو من القلق وعدم الاستقرار ، عاش الثلاثة الاسبوع الاول .. على أن شيئا واحدا أفعم قلب « بولين » بالسعادة ، وهو اقبال « لازار » عليها فجأة ، واهتمامه بأمرها ، وترديده أمامها بأنها « أحسن فتاة فى الدنيا » .. هذا بينما كان يحاول الابتعاد عن « لويز » وتجنب الاستسلام لاغرائها ، وعدم الانفراد معها فى غرفة واحدة خشية أن يتكرر ما حدث من قبل ..

ولما لاحظت « بولين » هذا الموقف بين الاثنين ، قالت لـ « لازار » ذات يوم :

- لماذا تتجنب « لويز » الى هذا الحد ؟ .. انها لم تأت الينا لكى نعاملها بمثل هذا البرود !

وراوغ « لازار » فى الاجابة ، وعادت هى تقول مشيرة - لأول مرة - الى ما حدث :

- لقد جئت بها لكى تتأكد يا « لازار » أنى غفرت لك كل شيء .. اننى أريد أن أمحو هذا الحلم المزعج من حياتنا . وأعتقد أنه لم يبق منه شيء الآن ، والدليل على هذا أنى أضع ثقتى فىكما معا .. وأخذها بين ذراعيه ، وعانقها بحنان ، ووعدها بأن يغير تصرفاته مع « لويز » ..

وأخذت الحياة منذ ذلك الحين تبدو أكثر بهجة .. ف « لازار »

يضحك ويغنى ولا يعرب عن الملل أو الضيق ، والعجوز « شانتو » سعيد بهذا الجو المفعم بالمرح وراحة الاعصاب ، و « فيرونيسكا » أصبحت أقل دممة ونفورا ، و « بولين » تستمد من سعادة الجميع ، سعادة لها ..

ولم تلبث العلاقات القديمة بين « لوز » و « لازار » أن بدأت تعود الى سابق عهدها تدريجيا .. وعادت الهمسات بينهما ، وأخذ كل منهما يشعر بالنشوة عند لمسات الايدي ، ولكن « لازار » كان في هذا كله حريصا ألا يتكرر ما حدث من قبل ، عندما فاجأته « بولين » وهو يعانق « لوز » ويوشك أن يستغرق معها في الخطيئة ! واكتفت « بولين » بأن تقف منهما موقف الام الحانية على أطفالها .. وكلما رأت « لازار » سعيدا ، ابتسمت في غبطة ، وكتمت في قلبها همسات الغيرة ، وأكدت لنفسها أن العلاقة بينهما ليست الا نزوة عابرة ، بعكس علاقته بها القائمة على الحب العميق ..

وفي ذات يوم ، بينما كان « لازار » و « لوز » في رحلة الى فيرمونت ، صعدت « بولين » لتبحث عن محلول لتنظيف المخمل في خزانة « لازار » الكبيرة .. وفيما هي تبحث عن المحلول ، عثرت يدها على قفاز « لوز » المعطر بشذى الهليوتروب ، وأدركت فورا أن هذا هو « الشيء » الذي أخفاه « لازار » عنها يوم فاجأته في هذه الغرفة ..

ومرة أخرى أحست بقلبها يعتصر تحت ضغط انامل باردة .. اذن ليس ما بين « لازار » و « لوز » مجرد نزوة عابرة .. انه الحب .. انه الاشتهاء الجنسي الذي لا بد أن يكون أساس حب كل رجل وامرأة يريدان الزواج احدهما من الآخر ..

فماذا ينبغي أن تفعل؟! ..

ظل هذا السؤال يراودها طيلة اليوم ، ويلح على ذهنها وهي راقدة على فراشها ليلا ..

يجب ان تجيب عن هذا السؤال باتخاذ موقف حاسم .. ولم تستطع أن تستغرق في النوم قبل أن تقرر في نفسها امرا .. وفي الصباح ، شعرت بالرضا لانها رأت أن عواطفها لم تختلج امام هذا القرار الذي اتخذته في الليلة السابقة . لقد قررت أن تنسى

نفسها وأن تقف من « لازار » و « لويز » الموقف الذى يمليه عليها ضميرها .. فاذا انتهى الامر الى زواجهما ، فانها سوف تخلى لهما الجو ، وترحل الى مكان آخر حيث تستأنف حياتها من جديد .. وكانت طبيعية فى تصرفاتها ، وهى تتناول طعام الافطار .. بل ان رؤية « لازار » و « لويز » وهما جالسان جنباً الى جنب يتضحكان ويتهامسان لم تؤثر فى قرارها الذى اتخذته ، وان ملأت قلبها بالالم والحسرة ..

ولما كان ذلك اليوم يوم سبت ، فقد خرجت مساء لتستقبل الدكتور « كازينوف » فى طرف البلدة ، ثم تعود معه ، بعد أن تعرض لئيه الموقف كله ..

وأخبرته بكل شئ وهى تسير بجانبه وراء المركبة التى أخذ العجوز « مارتن » يقودها ببطء أمامهما .. ولما فرغت من حديثها ، توقف الدكتور « كازينوف » برهة ، وأخذها بين ذراعيه من فرط التأثر ، وقال لها بعد أن قبلها بحنان :

— لقد أحسنت يا ابنتى .. وانى سعيد اذ انتهت الامور عند هذا ، لانى كنت أخشى أن تنتهى الى ما هو أسوأ .. لقد أمضيت شهورا وأنا أشد ما أكون قلقا عليك كلما رأيتك غير سعيدة .. والواقع ان هؤلاء الناس كانوا قساة عليك الى حد كبير .. فثروتك أولا .. ثم سعادتك .. ضاع كل هذا على ايديهم .. !

فقالت « بولين » :

— لا .. لا .. أرجوك .. لاتسرف فى الحملة عليهم .. يكفى أنهم فتحوا لى بيتهم كل هذه الاعوام ..

فقال الطبيب باصرار :

— حسنا .. حسنا .. ولكن هذا لن يمنعنى من الشعور بالسعادة لقرارك . نعم ، اتركى « لازار » .. دعيه لـ « لويز » .. انه ليس بالشاب الذى يبكى أحد على فراقه .. فمهما تكن نوايه الطيبة ، ومهما بلغت جاذبيته ، فانه ليس بالرجل الذى يستطيع ان يسعد زوجته .. اننى أفضل عليه أى زوج آخر ، ولو كان صبي جزار ، مادام يعرف كيف يواجه الحياة بشجاعة وابتسام !

ولما رأى الدموع تترقرق فى عينيها ، قال معتذرا :

– انك لاتزالين تحبينه .. حسنا .. حسنا .. لنكف عن الحديث في هذا الموضوع ، والآن قبليني مرة أخرى لانك فتاة شجاعة عاقلة تحسنين التصرف ولا تستسلمين للعواطف الطائشة ولما استأنفا المسير ، قال لها بلهجة جادة انه يوافقها على قرارها بمغادرة بونفيل بعد أن يتم زواج « لويز » و « لازار » وأكد لها انه سيبحث لها عن عمل مناسب . وقد حدث أن تعرف بسيدة ثرية تعيش بمفردها وفي حاجة الى وصيفة شابة ترعاها . وقال لها الطبيب ان هذه السيدة تقيم في مدينة سانت لو ، وانها بلا أبناء .. ومن المحتمل جدا أن تتبنى « بولين » عندما تشعر بمدى ماهى عليه من اخلاص وحب الخير للجميع

وتم الاتفاق على كل شيء .. ووعدتها الطبيب بأن يرسل لها خطابا في خلال ثلاثة ايام يخبرها فيه بما تم الاتفاق عليه مع السيدة الثرية المقيمة في سانت لو . وقرر الاثنان الا يخبرا احدا بهذا كله ، كما رأت « بولين » أن تتكتم خبر قرارها بمغادرة بونفيل حتى يتم زواج « لويز » من « لازار » .. ثم تتصرف بهدوء في صباح اليوم التالي ..

وبعد ثلاثة ايام ، استلمت « بولين » خطابا من الدكتور « كازينوف » يخبرها فيه ان السيدة المقيمة في سانت لو على استعداد لاستقبالها في أى وقت . وفي هذا اليوم نفسه ، انفردت « بولين » ب « لويز » في الشرفة المطلة على البحر ، بينما كان « لازار » خارج البيت ، وقالت لها ببساطة وهدوء :

– دعينا يا حبيبتي نتحدث بصراحة ورفق .. انك تحبيننى قليلا يا « لويز » اليس كذلك ؟ ..

فقالت « لويز » وهى تضع يدها على ذراع « بولين » :

– بل أحبك كثيرا ..

– اذا كنت تحبيننى حقا ، فلماذا تخفين عنى اسرارك ؟

.. أؤكد لك اننى بلا اسرار يا « بولين » ..

– لا .. لا .. يا حبيبتي .. فكرى قليلا .. حدثينى بصراحة عن حبك .. ان الحب الذى نعلنه على الناس هو الحب الطاهر البريء .. أما الذى نخفيه ، فهو الحب المناقض لكل براءة وطهر . وتأكدى

يا «لويز» اننى لا أريد ان يتكرر ما حدث ..
وهنا انفجرت «لويز» باكياً ، وعانقت «بولين» وقالت لها وهى
تخفى وجهها على كتفها :

– أرجوك يا «بولين» اننى أموت خجلاً من مجرد التفكير فيما
حدث .. اذا أردت ان ارحل الآن ، فلن أتردد لحظة واحدة ..
فرفعت «بولين» وجه «لويز» بيدها وقالت باسمه :

– لا .. لا .. يا حبيبتى .. اننى لم أتحدث معك الآن من أجل
هذا ، بل انى أريد ان احقق السعادة للجميع .. انك تحبين «لازار»
.. اليس كذلك ؟

فاضطرم وجه «لويز» بعنف ، وارتعد جسمها ، وحاولت ان تتخلص
من ذراعى «بولين» لتفر هاربة .. ولكن «بولين» أسرعت تقول :

– لا يا حبيبتى .. يبدو أننى أسأت التعبير .. أوكد لك اننى لست
غاضبة أو ساخطة .. ولكننى ارجو فقط الا نرتكب اخطاء نندم عليها
العمر كله .. انك تتبادلين مع «لازار» الحب .. اليس كذلك ؟ ..
حسنًا .. اذا كان الامر كذلك ، فانى أريد ان يتم زواجكما .. فهذا
هو الوضع الطبيعى للامور ..

تسمرت «لويز» فى مكانها ، وحملت فى وجه «بولين» مدهوشة،
وأخيراً قالت هامسة :

– وانت ؟ .. ماذا ستفعلين ؟ .. هل مات حبك لـ «لازار» ؟
– ان حبى لـ «لازار» تحول الى عاطفة أمومة أو اخاء .. اننى
أشعر كأنى اخته الآن .. او والدته اذا شئت ..
فهتفت «لويز» قائلة :

– لا .. لا .. انك تكذبين .. لا يمكن ان يتحول الحب الى هذه
العواطف الهادئة .. انك تريدان أن تضحى بنفسك من أجلى ..
وقاطعتها «بولين» قائلة :

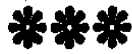
– اسمعى يا حبيبتى .. أوكد لك انه ليس فى الامر اية تضحية،
وانما انا اتصرف بناء على حكم العقل ، هل يرضيك ان أتزوج شاباً
يحب فتاة اخرى؟! واذا كنت احب شاباً حياً قويا – كما تقولين
– الا يدفعنى هذا الحب الى تهيئة اسباب السعادة له ؟ .. ان حبى
لـ «لازار» هو الذى يدفعنى الى العمل لاتمام الزواج بينكما ما دمتما

تبادلان الحب .. والآن ، علينا ان نتفق معا على قرار حتى لايشعر
«لازار» بالحرج امامى ..
ولكن «لويز» اعترضت قائلة :

– لا .. لا .. يا «بولين» .. اننى لا أستطيع ان اقبل هذه التضحية
.. لماذا تعذبين نفسك الى هذا الحد من اجل الغير ؟ .. اننى بدلا
من ان اتامر معك على سعادتك ، سوف اخبر «لازار» بكل شىء حتى
يعرف اى ملاك طاهر انت !

فصمتها «بولين» الى صدرها بقوة ، وقالت لها :
– لا .. لا .. يا «لويز» .. هلم نعمل معا لاسعاده .. هذا هو
واجبنا .. ارجوك ان تساعدنى .. ارجوك ..

وساد الصمت برهة بين الاثنتين ، ثم اذ كل منهما تعانق الاخرى
كأنهما اختان حبيبتان ، تربط بينهما اقوى وأطهر عاطفة ..



ولما عاد «لازار» صعدت «بولين» لمقابلته فى غرفته .. نفس الغرفة
الرحيبة التى طالما شهدت أحلى أيام حياتها .. ولانها كانت متلهفة
الى الفراغ من هذه المهمة بسرعة ، فقد رأت ان تحدثه عن الموضوع
بصراحة وعزم ؟

ومن ثم قالت :

– «لازار» هل يمكن ان نتحدث معا على انفراد برهة ، ان لدى
موضوعا خطيرا اريد ان اتحدث معك بشأنه ..
فسألها قائلا :

– ماذا حدث ؟ .. هل ساءت حالة ابى ؟! ..

– لا .. اسمع .. يجب ان نبحث الامر معا الآن .. فليس هناك
اية فائدة من ارجائه يوما بعد آخر .. انك تتذكر كيف ارادت والدتك
ان تربط بينى وبينك برباط الزواج .. وقد تحدثنا فى هذا الامر
كثيرا ، ولكننا اقلعنا عن مجرد الاشارة اليه منذ شهور ، ولهذا ارى
ان من الحكمة ان ننفذ ايدينا من هذا الامر نهائيا ..

فشحب وجه الشاب ، وهتف قائلا :

– ما هذا ؟ .. عن اى شىء تتحدثين ؟ .. الست زوجتى ؟ .. اذا
شئت امكننا ان نذهب غدا الى الاب « هورتيير » ليعقد زواجنا ..

أهذا ما تسمينه بالموضوع الخطير ؟

فردت قائلة بهدوء :

- انه موضوع خطير جدا لانه جعلك تغضب الآن .. ولهذا يجب ان نفرغ من علاجه الآن .. اننا حقاً صديقان عزيزان ، ولكننا لم نخلق لكى نكون زوجين متحابين .. فلماذا تصر على التمسك بمشروع لن يحقق السعادة لأحدنا ؟

وهنا اندفع «لازار» فى اقوال متعثرة لاتمت للمنطق بصلة.. قال لها انها تريد ان تتشاجر معه بغير سبب ، وانه لا يستطيع ان يبقى بجانبها ليلا ونهارا ، وانه ليس المسئول عن ارجاء الزواج شهرا بعد شهر ، وان من الظلم البين اتهامه بأنه لم يعد يحبها .. لقد احبها كثيرا ، وبلغ من حبه لها انه كان يخشى ان يلمسها حتى لا يرتكب معها خطأ جسيما . ولكن لشد ما تبدو بعيدة ايام تلك السعادة الفامرة .. ولشد ما اصبحت تعامله ببرود كأنه مجرد قريب أو صديق عادى، ثم اختتم حديثه قائلا :

- يا عزيزتى المسكينة .. لو انك كنت تحبيننى حقاً ، لالقيت بنفسك بين ذراعى بدلا من هذا الجدل العقيم ..!

وازداد وجهه شحوبا ، ولوح بيده فى احتجاج ، ثم تهالك جالسا على اقرب مقعد ، بينما ردت «بولين» قائلة :

- لا يا «لازار» .. من الواضح انك لم تعد تحبني ... ولا حيلة لاحدنا فى هذا .. فمن المحتمل جدا ان كلا منا لم يخلق للآخر ، والواقع اننى لا اتمتع بذلك الشيء الذى يجعلك تتلهف على وتعلق بى ..

فتململ فى مجلسه ، وقال فى تلثم شديد :

- ما هو هدفك من هذا ؟ .. اننى أسألك : ماذا تريد من انتحدث فى هذا الموضوع ؟ لقد عدت الى البيت بهدوء ، وصعدت الى غرفتى دون ان يشعر بى احد ، ثم اذا بك تفاجئتنى بهذا الحديث .. كيف تقولين اننى لم اعد احبك ؟ وكيف تزعمين ان كلا منا لم يخلق ليحب الآخر ، ما هو الهدف من هذا كله ؟! ..

فاقتربت «بولين» منه برفق ، وقالت وهى تضع يدها على كتفه :

- اريد ان اقول انك تحت فتاة اخرى ، وانا انصحك بالزواج

منها ..

وتسمر «لازار» في مكانه برهة .. ثم انفجر يقول انها تريد ان تعذبه ، وأن غيرتها ستؤدي مرة اخرى الى تكرار ما حدث ، وانها تكره أن تراه ينعم بالسعادة يوما واحدا ، وانها تريد ان تجعله يعيش في عزلة كاملة عن الناس حتى تطمئن الى استمرار حبه ، وانصتت «بولين» الى هذا كله في الم وصبر ، واخيرا هتفت قائلة بصوت مفعم بالعتاب :

– كيف تقول يا عزيزي اننى اريد ان أعذبك في الوقت الذى اسعى فيه الى تحقيق السعادة لك ولو على حساب حياتى كلها ؟ .. الم تعرف بعد اننى أعيش فقط لاسعادك ، واننى على استعداد للتضحية بكل شىء لأهيبك لك ولو ساعة واحدة من السعادة .. انك تحب «لويز» .. أليس كذلك ؟ .. فهل انا مخطئة حين أطلب منك ان تتزوجها دون ان تبالى بأمرى .. اننى اهبك لها ..!

فحملق فيها برهة ، ثم انفجر باكيا وهو يقول :

– أوه .. كفى .. كفى .. أرجوك ، اننى احتقر نفسى بسبب ما يحدث في هذا البيت منذ سنوات . اننى مدين لك بمبالغ كبيرة .. لقد اخذنا ثروتك وبعثرناها في مشروعات صبيانية . أتريدى بعد ذلك ان أستجدى منك الرحمة والعطف وأطلب ان تحلينى من وعدى لك .. أتحسبى محروما تماما من كل نزاهة وشرف واحترام للنفس ؟

فغمغمت قائلة بفرع :

– «لازار» .. «لازار» .. أرجوك ..

ووثب في غضب متزايد ، وراح يذرع الغرفة وهو يضرب صدره بجميع يده هاتفا :

– دعينى وشائى ، اننى استحق الموت .. يجب ان أقتل نفسى حالا ، ألسنت انت حبي الوحيد ؟ .. ألم أندم كثيرا على موقفى من تلك الفتاة الاخرى ، اننى على استعداد لأن أطردها الآن من البيت ارضاء لك ، ثم اسافر الى امريكا لاقضى بقية حياتى هناك ..

ولكن «بولين» رغم هذا كله استطاعت في النهاية ان تهدى أعصابه ، وان تبين له ان صوت الحكمة هو الذى يملى عليها هذا الموقف ، وأن عليه – من ناحية اخرى – ان يدعن للأمر الواقع ، والا

ينساق مع الخيالات والاهام ، وأن يكف عن المبالغة في كل شيء، وأن يدرك أن زواجه من « لويز » هو الوضع السليم للامور ما دام يحبها، وما دام والدها علم، استعداد لأن يلحقه بعمل مناسب في إحدى الشركات بباريس . ولما حاولت أن تشير الى «دوپة» لويز الضخمة، انفجر «لازار» مرة اخرى قائلا :

- آه ... انك تبيعيننى لها الآن .. أليس كذلك ؟... لماذا لا تصارحينى بأنك لا تريدان الزواج منى لانى ضيعت ثروتك ، ولانه لم يبق أمامى الا أن انحدر الى حد البحث عن زوجة ثرية .. لا .. هذا مستحيل .. أسمعين ؟.. مستحيل ..

ولم يسع «بولين» الا ان تكف عن مجادلته بعد أن يئست من اقناعه ، ومن ثم نهضت من مكانها ، وقالت وهى تهم بالانصراف :
- فكر فى هذا الأمر .. اننى لا أريد أن أعذبك أو أشقيك ... ولا شك انك غدا سترى الحقيقة من زاوية جديدة ..

ولكن اليوم التالى مضى ، والعشاق الثلاثة فى حالة عيفة من التوتر العصبى .. وبدت «لويز» مقرحة الجفنين من فرط البكاء ، واعتزل «لازار» الجميع فى غرفته طيلة اليوم .. وأخذت «بولين» تقوم بعملها المعتاد فى البيت وهى تحاول ان تبدو طبيعية .. ولكن هذه الحالة من التوتر اخذت تخف حدتها تدريجيا فى الايام التالية ، ثم اذ ب « بولين » ترى « لازار » يقبل « لويز » خلسة فى المطبخ عندما دخلت فجأة عليهما .. ولم يضطرب الاثنان كما حدث فى المرة الاولى ، وانما ضحكت « لويز » وحاولت أن تجرى بعيدا ، وأسرع « لازار » الى «بولين» وعانقها قائلا :

- لقد فكرت فى الامر ، وادركت أنك أحسن وأجمل أختى فى الدنيا. وأؤكد لك اننى لا زلت احبك كما كنت أحب امى ..
واستطاعت «بولين» أن تكتم آلامها ، وأن تقول :
- حسنا جدا .. اننى سعيدة يا « لازار » .. وأرجو أن يتم الزواج فى أسرع وقت ..

ثم انطلقت صاعدة الى غرفتها خشية أن تقع مفشيا عليها ..



وتمت اجراءات زواج «لازار» من «لويز» بسرعة بالغة ، ووافق

المسيو « تيبو دير » - والد « لويز » - على اسناد منصب ل «لازار»
بشركة تأمينات باريس ؟ وما هي غير أيام معدودة حتى تم عقد القران
في مدينة «كان» . وبعد أن شهدته «بولين» عادت ليلا - بمفردها -
الى بونفيل في مركبة «ماليفوار» ، ثم صعدت الى غرفتها ، وألقت
بنفسها على فراشها ، وانخرطت تبكى بعنف . ولما هدأت نفسها
قليلا ، نهضت وأوقدت الشموع القليلة ، وراحت تخلع ملابسها
قطعة قطعة أمام المرآة ..

وبقلب خافق ، وعواطف مشبوبة ، شرعت تتأمل وجهها المستدير
المتناسق الملامح ، وخصلات شعرها الذهبى الناعم التى تحيط به
كاطار فاخر.. ثم هبطت بنظراتها الى كتفيها المستديرتين، وذراعيها
البضتين ، ونهديها البارزين فى قوة وتحد ، ثم طفرت الدموع الى
عينها وهى تتأمل منطقة البطن .. منطقة الامومة .. وتساءلت :
هل ستقضى حياتها دون أن تحقق رسالتها كزوجة وأم ..؟ هل
ستعيش راهبة ، عانسا ، لا تنعم بحرارة عناق الرجل لهذا الجسم
العذرى الجميل ، ودون أن تحمل فى هذه البطن جنينا يحقق لها
رسالتها الانثوية فى الحياة ؟..

أنها - من ناحية الجسم - أجمل كثيرا من «لويز» .. ومن ناحية
الانوثة ، انضج كثيرا .. لقد رأت جسم «لويز» العارى فى مناسبات
كثيرة ، ولكن شتان بين أطراف «لويز» العجفاء الهزيلة وبين أطرافها
هى المستديرة المشدودة كالمطاط.. وشتان بين صدر «لويز» المسطح،
وصدرها هى النافر المفعم بالجاذبية الجنسية ..!
وعضت «بولين» على شفثيها حتى لا تنفجر باكية مرة اخرى ،
ثم عمدت الى ملابس النوم ، فارتدتها .. ولما أسفر الصباح ،
أخذت تعد حاجياتها لتفادر البيت مع الدكتور « كازينوف » حسب
الاتفاق الذى كان قد تم بينهما

وفىما هى تضع ملابسها فى الحقائب ، اذا ب « فيرونكا » تهرع
اليها قائلة :

- أسرعى يا آنسة « بولين » .. ان المسيو « شانتو » فى حالة
سئة جدا ..

وسيت «بولين» ملابسها وحقائبها، وأسرعت الى العجوز «شانتو»

الذى كان يعلم سلفا بقرارها عن الرحيل عن البيت .. فلما رآها
حاول أن يكتفم آلامه وآهات توجعته ، ثم قال :
- لماذا جئت يا «بولين» ؟ .. انك قررت الرحيل وتركى لآلامى
وأحزاني .. حسنا ، اذهبي واستمتعي بالحياة كما تشائين ، ودعيني
وشأنى ، فما انا الا عجوز مريض لا يقبل أحد أن يقيم معه .. اذهبي
يا ابنتى الى تلك السيدة الثرية التى سوف تغدق عليك من أموالها ..
وركعت «بولين» بجانبه ، وقالت فى حرارة :
- لا يا عمى .. لن أرحل .. لسوف أبقى بجانبك ولو ضحيت
فى هذا السبيل بعمرى كله ..!
وقال الدكتور « كازينوف » الذى كان قد حضر فى تلك اللحظة ،
وسمع كلماتها :
- يا للملاك المسكين يبدو لى أنها لن تستطيع النجاة من جحر
هذه الافاعى !



الفصل الثاني عشر

بِقِظَةِ الْحُبِّ

وعادت الأيام تمر في بيت آل « شانتو » ببلدة بونفيل ، وأقبل شتاء بارد عاصف ، تبعه ربيع مطير .. ثم تلكأ الصيف طويلا قبل أن يخلى المكان للخريف .. ثم شتاء آخر .. وأعقبه ربيع ثان ، ثم صيف وخريف ..

واستردت «بولين» هدوء نفسها ، وطوت قلبها على آلام الحب ، واستأنفت الحياة كما كانت تفعل من قبل .. تبذل من نفسها للعجوز «شانتو» ولأبناء الفقراء في القرية ، وللدكتور «كازينوف» الذي ظل يحضر مساء كل سبت لتناول العشاء مع الأسرة ومع الاب «هورتير» .. وأخذت الأيام تمضي تباعا ، كل يوم كسابقه ، حتى انتهى العام الاول على زواج «لويز» و «لازار» وبدأ العام الثاني ..

وكان «لازار» بعد رحيله مع زوجته الى باريس ، يرسل الخطابات بانتظام . وكانت «بولين» تعيش على انتظار هذه الخطابات .. تقربؤها .. وتحاول أن تشارك «لازار» في حياته التي يصفها بأسهاب .. ولشد ما كان يؤلمها أن تستشف من خطاباته آلامه النفسية، ومشاعره المركزة حول الخوف من الموت ، وبدء شعوره بالملل من عمله الرتيب في شركة التأمينات ، وخيل إليها ان تضحيته لاسعاد «لازار» لم تحقق الهدف منها !..

وفي ذات صباح من نهاية شهر يوليه ، وبينما كانت «فيرونিকা» مشغولة في المطبخ ، اذ ب « بولين » تستلم رسالة من « لازار » يتول فيها انه كتبها من مدينة «كان» ، وأنه سوف يصل الى بونفيل بعد ظهر اليوم التالي . وأسرعت «بولين» الى عمها تحمل اليه هذا النبأ . وتبادل الاثنان النظرات طويلا ، وكان العم يخشى أن تنفذ «بولين»

عزمها على الرحيل عن البيت بمجرد وصول «لازار» وزوجته . وكانت هي قد قررت هذا فعلا ، وقالت له انها سوف ترحل عندما يعود «لازار» مع زوجته للاقامة بالبيت ، لانه لن يكون لها مجال بينهما . . ولكن لشد ما كانت دهشتها عندما رأيا «لازار» يهبط بمفرده من مركبة «ماليفوار» في الخامسة من مساء اليوم التالي . . وأسرعت «بولين» للقاءه قائلة وهي تقدم اليه وجهها ليقبلها :

– عجبا! . . لقد جئت بمفردك! . .

وقال بايجاز وهو يقبل وجنتيها بحرارة :

– نعم . .

– وأين «لويز»!؟

– في كير مونت ، مع زوجة شقيقها . . لقد نصحتها الطبيب بقضاء بضعة ايام في مكان جبلي . . انها تعاني كثيرا من حالة حمل وقالت «بولين» لعمها وهي تدخل مع «لازار» :

– عمى . . لقد جاء «لازار» بمفرده . .

فقال العم «شانتو» بقلق :

– هل ستحضر «لويز» قريبا!؟

فأجاب «لازار» قائلا :

– لالا . . لسوف امر بها وأصحابها عند عودتي الى باريس . . لسوف أبقى بينكما اسبوعين ، ثم أعود . . وبذل العم «شانتو» جهده ليخفي سروره وابتهاجه ، ثم تبادل القبلات مع ابنه وهو يقول متظاهرا بالاسف :

– كم كنا نتمنى لو جاءت «لويز» معك . . أرجو أن تصحبها في المرة التالية

وبدأ الاثنان – «لازار» و «بولين» – يتبادلان النظرات ، كأنهما يحاول كل منهما أن يرى ما طرأ على الآخر من تغيير . . والواقع أن الدهشة غمرتتهما معا ، فقد دهشت «بولين» حين رأت «لازار» يبدو أكبر سنا من حقيقته ، نحىلا ، معروق الوجه ، مفضلن الجبين . . . تبدو المرارة بوضوح عند زاويتي فمه ، أما هو فقد دهش وهو يراها وقد بدت اكثر جمالا ، وانضر شبابا ، واقوى جسما . . ومن ثم ابتسم قائلا لها ولايبه :

– أرى أنك وأبى تبدوان أصفر سنا وأنضر جسما ..
تم التفت الى « فيرونیکا» التي اقبلت للترحيب به ، وأردف قائلاً:
– حتى أنت يا « فيرونیکا » أراك أحسن حالا مما تركتك ..
وغمغمت « فيرونیکا» بعبارات غامضة ، تم قالت :
– لقد تم اعداد غرفتك ياسيدى .. اصعد واستبدل ملابسك
ريثما أعد طعام العشاء ..

وعلى مائدة العشاء ، أخذ «لازار» يسهب في الحديث عن حياته في
باريس . وقد استطاعت «بولين» بذكائها ، ان تدرك حقائق كثيرة من
ثنايا هذا الحديث ..

ادركت ان « لازار » عاد – بعد الاسابيع الاولى من الزواج – الى
حالة التشاؤم والخوف من الموت ، وانه حاول جاهدا ان ينسى نفسه
بالاستغراق في العمل ، ولكنه لم يلبث أن بدأ يشعر بالملل يغلبه عن
امره ، ويفعم حياته بالاكئاب والتشاؤم . ومما زاد حالته سوءاً
انه غامر بجانب كبير من ثروة زوجته في مشروعات فاشلة ، وان هذا
كله أدى الى كثرة الشقاق والخلافات بينه وبين « لويز » حتى اصبح
كل منهما لا يكاد يطيق عبارة لوم أو عتاب من الآخر !
وهكذا اخذت « بولين » تردد لنفسها في تلك الليلة ، وهي تتقلب
في فراشها مسهدة :

– اذن فقد ضاعت تضحيتى من أجل سعادتهما سدى .. !



وأخذت الايام مرة أخرى تمر سراعاً ، وانقضى الاسبوعان الاولان
دون ان يرحل «لازار» رغم رسائل زوجته «لويز» التي كانت تشكو
فيها من الشعور بالوحدة ، وتعرب عن رغبتها في حضوره اليها ، أو
حضورها اليه .. وقد اجاب على آخر رسالة لها – بعد اقامته
بأربعة أسابيع – قائلاً انه سيعود اليها في خلال اسبوع . ولكن الامطار
الغزيرة لم تلبث ان هطلت بعنف شديد ، وراحت العواصف الرهيبة
تكتسح الشاطئ وكأنما هي طوفان يدفع امامه البحر واليابسة
والسماء وكل شيء ، ويغلفها جميعاً بغللات قاتمة من الضباب ..
وكان «لازار» في خلال هذه الفترة قد عاد الى الكتابة المسرحية ،
وحاول جاهدا ان يفرغ من مسرحيته الاولى « التي سيهز بها مسارح

العالم « وكانت « بولين » تجلس بجانبه الساعات الطوال ، تشجعه وتؤانسه ، وتشغل نفسها بأعمال التطريز واشغال الابرة لصنع جوارب للاطفال الفقراء .. الا أن «لازار» لم يكن يكتب شيئاً عندما تجلس «بولين» بجانبه .. وانما كان يستغرق معها في أحاديث شتى وبصوت هامس ، وبنظرات متبادلة مليئة بالشوق واللهفة والحب المضطرم في سكون .. ذلك ان الحب الذي ربط بين قلبيهما في مرحلة الصبا والشباب ، كان قد انبعث من تحت رماد السنين قويا ملتهباً .. تكاد نيرانه تحرق قلبيهما ، بينما تطل أنواره من أعينهما المفعمة بالسعادة والرضا ..

وكان كل منهما حريصاً الا يلمس الآخر أو أن يجعل نيران الحب تجرفهما الى أتون الخطيئة .. ومن ثم كان حسبهما أن يجلسا هكذا الساعات الطوال ، يتبادلان الاحاديث والنظرات ، ويسعدان بالوصال البريء العذب ، ويتمنيان أن تستمر الحياة بهما الى غاية العمر على هذا النحو .. !

وفي ذات ليلة ، كانت « بولين » جالسة تطرز في غرفة « لازار » حتى منتصف الليل ، وكان هو قد ألقى بالقلم ، وراح يحدثها عن شخصيات مسرحيته .. وكان الاب نائماً .. و « فيرونیکا » كانت قد ذهبت الى فراشها في ساعة مبكرة من المساء . ونفذ السكون المخيم على البيت الى قلبيهما ، مما جعل « لازار » يفتح صفحات قلبه امام « بولين » ويقول انه ضيع حياته في الفشل والاهام ، وأنه اذا فشل في الكتابة المسرحية ، فسوف يعترف بفشله في كل شيء بعد ذلك .. وعندئذ لن يكون امامه الا ان ينزوى في بقعة نائية من العالم مثل بونفيل ليقتضى فيها بقية حياته ..

ثم أردف قائلاً ، وهو يتسم في شحوب :

- واذا لم تصلح بونفيل لانزوائى ، فسوف اذهب الى أى مكان اخر فى العالم الواسع ..

وبعد برهة صمت قال :

- هل تصدقين اننى فكرت كثيرا فى ان نهجر - معا - البلاد ، عقب وفاة أمى ..

- نهجر البلاد ؟ .. الى اين ؟ ..

- الى مكان بعيد .. الى الهند الصينية مثلا .. أو جزر الهند الغربية .. الى تاهيتى أو هاواى .. أو أية جزيرة جميلة حاملة من هذه الجزر ..

- ووالدك .. هل كنا سنأخذه معنا ؟

فابتسم وقال وهو يهز رأسه :

- كان الامر مجرد فكرة او حلم .. ومن حق الانسان الفاشل مثلى ان يحلم بأشياء جميلة بين الحين والآخر حتى ينسى الحقيقة المرة ..

وغادر مكانه من المنضدة ، ومضى الى مقعدها الوثير ، وجلس على ذراعه .. بحيث أحس بلمسة كتفها الدافئ لفخذه ، هذا بينما قالت هى وكأنما أرادت ان يستطرد فى الحديث عن ذلك الحلم الجميل :

- انك عجيب ؟ .. ماذا كان يمكن أن نفعل فى تلك الجزر ؟

- كنا سنعرف كيف نعيش حقا .. أتذكرين كتاب الرحلات ذاك الذى كنا نقرؤه معا منذ سنوات .. منذ اثنتى عشرة سنة او نحو ذلك ؟ .. أتذكرين كيف قرأنا عن الاهالى هناك ، وكيف يعيشون وكأنهم فى الجنة .. انهم لا يعرفون هناك ماهو الشتاء .. والسماء دائما زرقاء صافية .. وتصورى كيف كنا سنعيش دائما فى دفاء الشمس وتحت النجوم .. وكيف كان طعامنا سيقتمر على الفواكه ولحم الغزلان .. ثم لاشيء من العمل والكدح بعد ذلك ؟ فابتسمت وقالت :

- أى حياة اثنين من الهمج الذين يضعون الحلقات النحاسية فى

انوفهم وآذانهم وريش الطيور فوق رؤوسهم !

- حسنا ؟ .. ولم لا .. اما يكفى ان يحب احدهنا الآخر من اول

العام الى آخره ؟ .. أما يكفى أن تمر بنا الايام فلا نحسب لها حسابا ؟

ورفعت وجهها اليه ، وقد بدت عليه صفرة خفيفة .. وطرفت بأهدابها برهة بعد ان نفذ حديثه عن الحب الى أعماق قلبها ، وملاء نفسها بأعنف الرغبات الممتعة .. وتناول « لازار » يدها بلا تفكير ، وراح يمسح عليها بيديه فى رفق ، ويطوى اصابعها ويبسطها ويضحك معها دون أن يخطر ببال أحدهما أن هذا كله سوف يؤدى الى شيء . وحاولت هى أن تخفى اضطرابها العاطفى الشديد ، فقالت

بصوت مرتعد :

- ولكن الحياة على الفاكهة واللحم لا تكفى .. لابد لنا أيضا من صيد البحر .. ولابد لنا من الخضروات والخبز والنشويات .. أى لابد لنا من ان نفلح الارض .. ويقال ان النساء هناك هن اللاتي يعملن فى الارض ، فهل كنت ترضى أن أقوم بهذا العمل ؟

فنظر اليها فى لهفة وشوق متزايد ، وقال :

- أنت ؟ .. بهاتين اليدين الجميلتين ؟ .. لقد نسيت النساءيس ، انها تقوم بالعمل هناك كما يقولون ..

فأرسلت ضحكة خفيفة ، بينما قال هو مداعبا :

- وعدا هذا فلن يبقى شىء من يديك هاتين بعد ان آكلهما هكذا ..

وراح يتظاهر بأنه يقرضهما ، بينما كان فى الحقيقة يقبلهما بحرارة دون ان يراها .. لان دماء الشهوة تصاعدت الى وجهه واعمته عن كل شىء . ولم يقلل احدهما شيئا بعد ان استبدت بهما هذه العاطفة الثائرة الرهيبة ، والرغبة الجامحة للاستغراق معا فى لحظات نسيان خلالها كل شىء . ولم تحاول هى ان تقاوم ، وانما تركت نفسها تنزلق من المقعد الى الارضية وقد احتقن وجهها .. واغلقت عينيها كأنما ارادت الا ترى شيئا .. بينما كانت شفتاه تلتقى بشفتيها فى قبلات محمومة ، وكانت هى تعانقه بقوة مع كل قبلة .. وفجأة فتحت عينيها ، ورات ملامحه الملتوية بالرغبة الجنسية . فبدأت تثوب الى نفسها تدريجيا .. فأرسلت صيحة خافتة امتزج فيها الفرع بالخجل ، ثم هتفت قائلة :

- دعنى .. دعنى .. ان هذا شىء فظيع

ولكن « لازار » لم يسمعها لفرط استغراقه فى رغباته الجنسية المضطربة ، ومن ثم عاد وامسك بها وراح يمطرها بقبلاته الحارة المحمومة فى كل مكان من جسمها .. وكادت ان تستسلم له مرتين ، ولكنها كانت فى كل مرة تستمد من ضعفها قوة ، وتدفعه عنها بعيدا وهى تقول بصوت متحشرج :

- لا .. لا .. أرجوك .. دعنى انك تحاول أن ترتكب معى شيئا فظيما

ولكن « لازار » كان يضغط على أسنانه دون ان يجيب بكلمة ..

ثم يعاود الكرة معها ، فلما شعر أخيرا انه تغلب عليها ، وانها أصبحت طوع بنانه ، اذ به يفاجأ بوثوبها بعيدا عنه بقوة ، ثم اذ هي تندفع هاربة الى غرفتها الواقعة امام غرفته مباشرة ، ثم تغلق الباب بالرتاج من الداخل قبل ان يتمكن من اللحاق بها ..

وظلت ضاغطة على الباب من الداخل حتى تمنعه من اقتحام الغرفة ، وقد أخذت انفاسها اللاهثة تتلاحق بعنف ، بينما كان هو يحاول جاهدا أن يدفع الباب وهو يهمس قائلا :

– « بولين » .. « بولين » ! افتحي الباب .. أرجوك ..

أرجوك

وسرت الرعدة في جسدها ، وأشعل صوته المتوسل النار في عواطفها .. ورغم انها لم تكن تقل عنه رغبة فيه ، الا انها ظلت متمالكة لقواها ، مصرة على أن تمنعه وتمنع نفسها من ارتكاب شيء يجعل كلا منهما يخجل من مجرد النظر الى الآخر بعد ذلك ..

وعاد « لازار » يقول بصوت متهدج :

– انك تريدني كما أريدك يا « بولين » .. وانت شقية مثلي بالحرمان من هذه اللحظات التي لايتكامل الحب بدونها .. افتحي الباب .. أرجوك .. لماذا ننكر على أنفسنا الحق في هذه السعادة؟! وكان حريصا على جعل صوته خفيضا حتى لايقظ « فيرونیکا » النائمة في الغرفة القريبة .. ولهذا كانت توسلاته تصدر بصوت أقرب الى الفحيح منه الى صوت آدمي !

وعاد يقول :

– افتحي الباب .. أرجوك .. افتحي الباب .. وليكن بعد ذلك ما يكون .. لنمت بعد ذلك .. حسبنا أن نعيش معا لحظات العمر كله .. ألم نبادل الحب منذ الطفولة ؟ .. أما كان الواجب أن تكوني أنت زوجتي .. لسوف تتحقق هذه الامنية يوما .. نعم .. لأنى أحبك .. أحبك ..

وازدادت رعشة جسمها ، لان كل كلمة كانت تسبب سرعة دقات قلبها وتثير عواطفها وتؤجج نيران رغبتها في الاستسلام له .. بل كانت لاتزال تحس بقبلاته المحمومة على شفيتها ، وعلى كتفيها .. وفي كل مكان من جسمها .. ومن ثم ظلت تقاوم فتح الباب خشية

أن تلقى بنفسها بين ذراعيه وتستسلم له ..
وكان ثمة سؤال يتردد في ذهنها كأنه رنين أجراس من بعيد :
نعم .. انه على حق .. لماذا تحرم نفسها من هذه السعادة ؟ ..
لماذا تعيش معه في هذه الحالة من الكبت العاطفي ؟ .. لماذا لاتنتهز
هذه الفرصة وتضع جسمها بين ذراعيه وتشعر بمعنى الحياة ولو
لمدة ساعة واحدة !

وكان « لازار » يقول من الجانب الآخر للباب :

- « بولين » .. لا داعي لهذه القسوة .. ردى على على الاقل ..
انى أقف هنا بأسا شقيا .. افتحى الباب .. أرجوك .. لسوف
آخذك بين ذراعى وأنى معك العالم كله ساعات .. أرجوك ..
افتحى الباب .. اننى أتوسل اليك ..

وتهدج صوته بالبكاء .. وشرعت هى أيضا تبكى .. وكانت
حتى تلك اللحظة لم تنطق بكلمة رغم الثورة العارمة المندلعة فى دماغها
.. وظل الحال على هذا النوال ساعة كاملة .. هو يتوسل اليها من
الخارج ، وهى مستندة الى الباب من الداخل بكل قواها ، ممزقة
النفس بين نداء العاطفة ونداء العقل ..

ولما تأكدت أخيرا من انصرافه ، اندست بين أغطية فراشها
البارد ، وحاولت أن تدع برودته العذبة تخفف من حرارة جسمها
المتتهب بالعاطفة .. وبقيت على هذا النحو بلا نوم حتى أسفر
الصباح . وعبثا حاولت أن تبرر ماحدث بأنه نزوة طارئة بين رجل
مجرب ، وفتاة عذراء ..

لقد أدركت فى تلك الليلة أن حبها المتبادل مع « لازار » لم
ينطفئ يوما ، وانما كان مستمرا تحت طبقة من الرماد .. !

وعندما حان موعد الافطار ، هبطت الى الطابق الارضى بعينين
مقرحتين من السهد ، وبوجه شاحب هادىء . وأقبل « لازار »
دون أن يشير من قريب أو بعيد الى ماحدث فى الليلة الماضية ،
وامضيا اليوم كله دون ان يتجنب احدهما الآخر ، وكأنما كانا
واثقين من قوة ارادتهما بعد أن هدأت تلك العاصفة التى ثارت أمس
فى دماغها . وعندما صعدا ليلا الى الطابق الثالث للنوم ، وقفوا
برهة فى الردهة التى تفصل بين غرفتيهما ، ثم اذا هى تلقى بنفسها

بين ذراعيه وتتبادل معه قبلة حارة ، ثم انفصل كل منهما عن الآخر بسرعة ، واندفع الى غرفته ، وأغلق بابها عليه .. كأنما يخشى أن يتكرر ما حدث في الليلة السابقة ..

وكان ذلك هو الطابع الذي ساد حياتهما منذ ذلك الحين .. الحب المتأجج في عروقهما ، والسكون البادى على وجهيهما ، والاقتصار على استمداد المتعة من الحديث الهادئ ، والنظرات المتبادلة ، واللمسات الرقيقة ، والتفاهم الروحي المشترك ..

ورغم هذا كله ، كان كل منهما يخشى أن ينفجر رجل العاطفة ذات يوم .. وكان يتساءل : ترى متى سيحدث هذا الانفجار ؟ .. فى الصباح أم فى الليل ؟! .. فى داخل البيت أم فى خارجه ؟ فى غرفته هو ، أم فى غرفتها هى ، أم فى ركن قصى من أركان البيت ؟ .. ان كلا منهما لا يستطيع أن يجزم بشيء .. ولكن كان ثمة شعور مشترك بالاستنكار كلما اختلسا قبلة حارة أو عناقا محموما وراء باب .. وكان هذا الشعور المشترك بالاستنكار - بعد كل لحظة من هذه اللحظات - هو الصمام الواقى من تكرار ما حدث فى تلك الليلة

كانا يشعران كأن الأرض تهتز تحت قوة عاطفتهم .. ولكنهما كانا يتشبثان فى لحظات الهدوء والاتزان بالأصرار على عدم الوقوع فى هاوية الخطيئة . ولكن لم يحاول احدهما أن يلجأ الى الوسيلة الوحيدة التى تنقذهما من هذا الاضطراب .. لم يجد احدهما الشجاعة الكافية للهرب من الآخر ، ف « بولين » كانت تصطنع الشجاعة النفسية وتواجه الخطر فى تحد عنيف ، وكان « لازار » يحس انه يعيش فى عالم جميل مثير مصنوع من هذا الحب المتيقظ .. وقد بلغ من استمتاعه بهذا اللون من الحياة ، أنه أخذ يهمل الرد على رسائل زوجته الملهوفة الحيرى .. وهكذا كان الاثنان يتمنيان أن تستمر بهما الحياة على هذا النحو ، رغم كل ما فيها من كبت جنسى ، وحرمان من متعة الزواج .. !

وفى مساء يوم أحد ، كان الجميع يجلسون حول مائدة العشاء فى حالة من الابتهاج والغبطة والسرور .. وقد تجرأ العجوز « شانتيو » وشرب كأسا من الخمر غير حافل بما قد يناله فى اليوم التالى من آلام النقرس . وفى ذلك اليوم ، كانت « بولين » و « لازار » قد

خرجا منذ الصباح ، وأمضيا سحابة اليوم على الشاطئ في لهو
برىء ، وفي سباق للسباحة .. وفيما كان الثلاثة يضحكون ابتهاجا
وغبطة ، اذ بـ « فيرونیکا » تقبل من باب المطبخ وتقول :
- لقد وصلت السيدة ..

فتساءلت « بولين » بدهشة قائلة :

- أية سيدة يا « فيرونیکا » ؟

- السيدة « لويز » طبعاً !



الفصل الثالث عشر

بعت الحياة ..

وخيم الصمت برهة على الجميع ، ونظر العجوز « شانتو » في جزع الى « لازار » و « بولين » اللذين شحب وجهاهما فجأة .. وأخيرا نهض « لازار » وقال غاضبا :

– ماذا ؟ .. أتقولين « لويز » ؟ انها لم تخبرنى بهذا .. لقد طلبت منها الا تحضر مهمم يكن السبب .. لاشك انها فقدت عقلها .. !

وسار الى الخارج ، ووراءه « بولين » التى كانت تحاول أن تسترد حالتها الطبيعية من المرح والاتزان . وهناك – فى الشرفة – رأيا « لويز » وهى تحاول الهبوط من مركبة « مالفوار » .. وصاح بها « لازار » قائلا :

– هل جننت ؟ .. كيف تفعلين شيئا كهذا دون أن تكتبى الى ؟ وانفجرت « لويز » باكية ، وقالت :

– اننى لم افعل هذا الا بعد أن امتنعت عن الرد على خطاباتى ، وبعد أن كاد الملل يقتلنى ، هذا فضلا عن شوقى الشديد لرؤية بونفيل مرة اخرى !

ثم أردفت قائلة وهى تمسح دموعها :

– وكنت أريد أيضا أن أفاجئكم بهذه الزيارة .. !

فقال « لازار » :

– لا .. لا .. هذا لا ينبغي ان يكون .. ان الحياة هنا لاتلائمك

.. يجب أن ترحلى غدا ..

وفوجئت « لويز » بهذا الاستقبال الذى لم تكن تتوقعه ،

فاضطربت وسقطت فى شبه اغماء بين ذراعى « بولين » ..

وماكادت « بولين » تحس ببطن « لويز » المنتفخة بالحمل ، حتى اشتعلت نيران الغيرة في قلبها .. ولكنها لم تلبث أن تغلبت على الشعور ، ثم قالت :

– كيف تعامل زوجتك هكذا يا « لازار » ! هلم قبلها .. وأنت ياعزيزتى « لويز » .. اذا كنت تعتقدين أنك ستكونين أسعد حالا بالاقامة فى بونفيل ، فعلى الرحب والسعة .. فأنت تعرفين أننا جميعا نحبك .. أليس كذلك ؟

ومضى الجميع الى الداخل ، واتخذت « لويز » مكانها الى مائدة الطعام ، بينما كان العجوز « شانزو » يقول ضاحكا ليخفى اضطرابه :

– اذن فقد أردت أن تفاجئينا بهذه الزيارة ياعزيزتى « لويز » ! . حسنا .. حسنا .. لقد كانت مفاجأة فعلا ، حتى كدت أن ابتلع الشوكة بدلا من شريحة اللحم !

وأضى الجميع السهرة فى هدوء بعد أن استردوا طبيعتهم المرحية .. ولما حان موعد الصعود للنوم ، قالت « فيرونیکا » لـ « لازار » و « لويز » :

– لقد أعددت غرفة سيدتى الراحلة لنومكما معا .. ومرت لحظة من الارتباك ، قال « لازار » بعدها :
– لا .. لا .. انى أفضل أن تنام « لويز » بمفردها حتى لا أزعجها ..

وقالت « لويز » فى غير غضب :
– أجل .. أجل .. نم أنت فى غرفتك بالطابق الثالث يا « لازار » .. وأنا فى الواقع أشد ما أكون احتياجا الى غرفة مستقلة ..



ومرت ثلاثة أيام كانت « بولين » خلالها تحاول جاهدة أن تقتل سموم الغيرة فى قلبها كلما رأت « لازار » و « لويز » يعيشان معا أمامها كزوجين .. ورغم ماكان يحدث من منازعات وخلافات يومية بينهما ، الا انها لم تستطع أن تنسى أن « لازار » حبيب العمر ، هو الزوج الذى أنتزعتة « لويز » منها ليكون ابا لابنائها .. ومن ثم قررت أن ترحل عن البيت فى يوم الاثنين التالى كى تلتحق

بخدمة السيدة الثرية التى كانت فى انتظارها بمدينة سانت لو
ولما علم الجميع بهذا القرار ، استبد بهم الحزن .. حتى « لويز »
نفسها ، أعربت عن أسفها والمها ، وقالت انها كانت تتمنى أن تبقى
« بولين » بجانبها ، لأنها لن تجد فى الحياة صديقة أكثر وفاء
واخلاصا وطهارة قلب منها ..

وفى تلك الليلة التى أعلنت فيها قرارها ، صعدت « بولين » الى
غرفتها بعد أن فرغوا من تناول العشاء - وبعد أن نام العجوز
« شانتو » - وبعد أن أوت « لويز » الى مخدعها .. لحق « لازار »
ب « بولين » فى الردهة القائمة بين غرفتيهما ، وهناك قال لها :
- هل تسمحين بأن أودعك ؟
فضحكت وقالت :

- لا .. ليس الوداع الليلة ، فانى سأرحل فى يوم الاثنين القادم !
ونظر كل منهما الى الآخر برهة ، ثم اذا هما يتعانقان بحرارة ،
واذا الشفاة تلتقى فى قبلة طويلة محمومة .. !



وفى صباح اليوم التالى ، وبينما كان الجميع - ماعدا « لويز » -
جالسين الى مائدة الافطار ، اذا ب « لويز » تبدو على درجات السلم
وهى فى حالة اعياء شديدة ، وتقول بصوت متوجع :
- « لازار » .. اننى لم أتم لحظة طيلة الليلة الماضية .. ولست
أدرى ماذا بى ؟ فانى لازلت فى الشهر الثامن ومع ذلك أشعر انى
على وشك الوضع .. !

ونفض « لازار » بسرعة قائلا :

- هل استدعى مدام « بولاند » القابلة ؟!

- نعم .. نعم .. وبسرعة ..

ولما أقبلت مدام « بولاند » القابلة المجربة ، قالت بقلق بعد أن
فحصت حالة « لويز » :

- انها على وشك الوضع فعلا ، والحالة خطيرة .. لا بد من

استدعاء الدكتور « كازينوف » ..

وفيما كان « لازار » يستدعى الطبيب ، أخذت القابلة تعد كل
شئ ، وكانت « لويز » قد بلغت ذروة الشعور بالالم ، وبدأت

صيحات توجعها تتردد في البيت .. وبعد نحو ساعة ، خرجت القابلة من الغرفة في شيء من الفزع ، وقالت لـ « بولين » الجزعة :
- ان الحالة خطيرة جدا .. لقد خرجت ذراع الجنين ، ولكن الكتف محشور ، وأرجو أن يأتي الطبيب فوراً ، لان السيدة في حالة اغماء الآن ..

وفي نحو الساعة الثالثة - وكان القلق قد استبد بالقابلة خشية أن تفقد « لويز » حياتها - أقبلت « فيرونكا » الى « بولين » وقالت ان الدكتور « كازينوف » قد وصل أخيراً مع « لازار » وانه يستعد للصعود الى « لويز » ..

ووقفت « بولين » مع « لازار » في الطابق الارضى بعد صعود الطبيب الى « لويز » وخيم الصمت الرهيب على البيت ، وكان العجوز « شانتو » قد استغرق في النوم على مقعده ، وبقايا طعام الغداء لاتزال أمامه . وقالت « بولين » لـ « لازار » هامسة :
- هل نوقظه ونخبره بالامر ؟

فهز « لازار » رأسه وقال :

- لا .. لاداعي .. دعيه يستمتع بهذه اللحظات من النوم .. ان المسكين قلما ينام هكذا بعمق ..

ومرت اللحظات رهيبة قاسية ، ولم يسمع الاثنان شيئاً مما كان يدور بالطابق الثالث .. لم يسمعا صراخاً ، ولا مقاومة ، ولا آهات توجع . وأخيراً هبط الدكتور « كازينوف » بوجه شاحب ، فنظر « لازار » اليه بجزع وقال له :
- ماذا حدث ؟!

ولم يجب الطبيب فوراً ، وانما جلس على أقرب مقعد ، ووضع رأسه بين يديه ، وأخيراً قال بصوت مضطرب :
- اننى ثم أفعل شيئاً حتى الآن ، ولا أريد أن أفعل شيئاً دون استشارتك ..

ومسح بيده على جبينه كأنما يحاول أن يجد حلاً لمشكلة معقدة ، هذا بينما كان « لازار » يقول :

- ولكن الامر كله يتوقف عليك يا دكتور « كازينوف » .. اننا ندع « لويز » بين يديك ونحزم واثقون تماماً من قدرتك على مواجهة الموقف ..

فهز الطبيب رأسه وقال بصوت ملؤه الالم والحزن :
- يجب أن أكون صريحا معك .. ان الحالة تبدو الآن ميئوسا
منها بالنسبة للام والجنين معا .. ولكن هناك أملا ضئيلا فى امكان
نجاة أحدهما

وندت عن « بولين » صيحة جزع ، وتسمر « لازار » فى مكانه ،
وفتح العجوز « شانتو » عينيه ببطء وقد أحس بأن شيئا ما يجرى
بالقرب منه ، هذا بينما استطرد الطبيب قائلا :

- وعليك يا « لازار » أن تقرر الآن : أيهما أعمل على انقاذه ..
الام أم الجنين ؟

فصاح « لازار » فى يأس :

- أيهما؟! اننى لا أدرى .. فهذه زوجتى .. وهذا ابنى ..
اننى لا أستطيع أن أقرر شيئا كهذا ..

واختنق صوته بالدموع .. وأخذت « بولين » تنظر الى الرجلين
بوجه ممتقع ونظرات مفعمة بالحيرة والخوف .. أما الطبيب فقد
عاد يقول :

- يمكن انقاذ الام على حساب الجنين ، ويمكن انقاذ الجنين
بعملية قيصرية .. ولكن حالة الام الآن لن تسمح لها باحتمال
هذه العملية والحياة بعدها . ولهذا أرى أنك يا « لازار » الشخص
الوحيد الذى من حقه أن يقرر أيهما أعمل لانقاذه على حساب
الآخر !

ولم يستطع « لازار » أن يقول شيئا لفرط اختناقه بالدموع ،
ومن ثم هتفت « بولين » قائلة فى حرارة وانفعال :

- لماذا جئت الينا الآن يا دكتور « كازينوف » ؟ ان واجبك هناك ،
فى غرفة المريضة ، وأنت أدرى منا بما يجب أن تفعل .. فلماذا
تسألنا ؟

وفى تلك اللحظة أقبلت مدام « بولاند » القابلة وقالت ان الحالة
تزداد سوءا ، ثم أردفت قائلة :

- هل استقر الرأى على شيء ؟

وفجأةلقى الدكتور « كازينوف » ذراعيه حول « لازار » وقال
بصوت كله العطف والاشفاق :

– اسمع .. لسوف أبذل كل مالدى من خبرة وجهد لانتقاذ
الاثنين ، واذا هزمتنا الاقدار ، فسوف اكون أكثر منك حزنا ، لانى
سأعتبر ماحدث خطأ منى

وتم اعداد كل شىء فى الغرفة الكبيرة التى كانت خاصة بالراحة
مدام « شانتو » ، وأوقدت « فيرونیکا » النار فى المدفأة ، وأضاءت
المصابيح ، وأعدت الماء الساخن وزجاجة الشراب ، وتعاونت القابلة
مع الطبيب على تهيئة « لويز » فى الوضع المناسب لاجراء العملية غير
الجراحية ..

وقال الطبيب لـ « لويز » مشجعاً :

– اسمعى ياطفلتى العزيزة .. أرجو أن تشقى بى وأن تتأكدى أن
حياتك عزيزة علينا جميعاً ، ولهذا فانى واثق بأنك سوف تساعدنى
فى عملى بقدر الامكان ..

وبدا أن « لويز » لم تسمع شيئاً .. ولكنها لم تلبث أن فتحت
عينها حين فاجأتها نوبة ألم ، وصاحت قائلة :
– اقتلونى .. اقتلونى فوراً .. اننى أفضل الموت على هذه
الآلام !

وقالت « بولين » للطبيب هامسة :

– أرجوك أن تسرع فى العمل .. فنحن هنا معك لنتحمل كل
مسئولية عنك ..

وبدا الطبيب صراعه ضد الموت ..

وكان صراعاً عنيفاً قاسياً .. لقد صارع الموت من قبل مئات
وآلاف المرات فوق السفينة التى كان يعمل عليها ، وفى مختلف
الاماكن التى كانت السفينة ترسو فى موانئها ، ولكنه كان يحس فى
تلك اللحظات أن صراعه مع الموت لانتقاذ « لويز » والجنين معاً ،
يختلف عن كل صراع سابق ..

كان راکعاً أمام « لويز » وكانت كل من « بولين » والقابلة
تمسكان بقوة باحدى ساقى « لويز » حتى لاتتحرك بعنف عندما
تفاجئها نوبة ألم الوضع ، وكانت « لويز » – من فرط الألم
والاعياء – لاتكاد تدرى بما يجرى ، وانما كانت تشعر فقط كأن
هناك من يمزقها الى نصفين بلا رحمة !

ولما استطاع الطبيب أخيرا أن يعيد الجنين الى وضعه الطبيعي ،
نهض ومسح العرق عن وجهه وقال بصوت كله تفاؤل :
- أعتقد ان الامل أصبح كبيرا الآن فى انقاذ الاثنيين .. وكل ما
أخشاه أن يختنق الجنين اذا لم نبادر الى اخراجه الآن ..
وعاد الى « لويز » واستأنف عمله وهو يقول :
- لاتشدى أعصابك وعضلاتك ياطفلتى .. ساعدينى قليلا
وسوف ترين الى اى حد من السهولة سوف ينتهى الامر
وقبلتها « بولين » فى جبينها وهى تقول :
- يا حبيبتى المسكينة .. لقد أوشكت آلامك أن تنتهى .. تجلدى
لحظات أخرى ..

ومرت اللحظات بطيئة رهيبة .. وتأزم الموقف أكثر من مرة ،
وسكنت عضلات « لويز » وهمد جسمها فى اللحظات الاخيرة حتى
ظن « لازار » أنها ماتت .. ومن ثم لم يسعه الا أن ينزوى فى أحد
أركان الغرفة ويخفى وجهه وهو لا يدري ماذا يفعل ..
وفجأة سمع الطبيب يقول وهو يتنهد :
- أخيرا وصل المولود العزيز .. من حقه ان يفخر فيما بعد بأنه لم
يدخل الدنيا ببساطة ..!

وفى خلال هذه اللحظات الحاسمة المشحونة بالانفعالات المختلفة
لم يحاول احد ان يسأل عن نوع المولود ، ولكن القابلة مدام «بولاند»
لم تلبث ان قالت :
- انه مولود ذكر ..

وانفجر « لازار » باكيا وهو يهمس :
- ما فائدة هذا كله ؟.. ما فائدة خروج هذا المسكين الى حياة
مصيرها فى النهاية العدم بعد الفشل والعذاب والالم ؟!
ويبدو ان احدا لم يسمعه ، لان الطبيب والقابلة استأنفا العناية
بالام ، بينما ذهبت « بولين » الى « لويز » وقبلتها مرة أخرى وهى
تقول :

- لقد انتهت آلامك الآن ، وسوف تنسين كل شىء بعد لحظات
عندما تضمين ابنك العزيز الى صدرك ..!
وانشنت الى « لازار » قائلة :

– تعال وقبل « لويز » مهنتًا يا « لازار »

ومضى « لازار » الى زوجته ، ولكنه ارتعد بعنف حين رأى وجهها الشاحب الفارق بالعرق .. وخطر له أنها فارقت الحياة ، ومن ثم أسند رأسه الى الجدار وعاد الى البكاء ..

اما الطبيب فقد قال للقابلة بصوت هامس سمعته « بولين » :

– اعتقد ان المولود ميت .. اربطى له الحبل السرى بسرعة ..

والواقع ان المولود لم يطلق الصرخة المعتادة عندما خرج الى الحياة وكان لون جسمه مرعبا مليئا بالكدمات في مواضع مختلفة ، كما بدا صغيرا رغم كبر حجم الرأس

وقالت « بولين » التى كانت تنصت الى حديث الطبيب :

– اعطنى المولود .. ودعنى أحاول معاونته على التنفس

وحملت المولود الى الغرفة المقابلة بعد ان اخذت معها زجاجة

البراندى وبعض الملابس والاقمشة القطنية

وفي الغرفة ، دارت معركة اخرى ضد الموت .. فبينما كان الطبيب

والقابلة يبذلان كل جهد ممكن لمعاونة « لويز » على الخلاص من بقايا

الوضع ، كانت « بولين » تحاول جاهدة بعث الحياة فى جسم

المولود ..

لقد وضعت بجوار المدفأة ، وركعت بجانبه ، وراحت تدلكه – فى

رفق شديد – بقطعة كبيرة من القماش الناعم المشبع بالكحول .

وظلت تقوم بهذا العمل فى اصرار وعناد حتى شعرت بالخدر يسرى

فى ذراعيها ، وبالارهاق يكاد يغلبها على امرها .. وكانت جد حريصة

على الترفق فى التدليك خشية ان تقضى على البقية الباقية من

الحياة الكامنة فى جسم المولود .. ولهذا كان تدليكها اقرب ما يكون

الى تحريك ريشة ناعمة لجناح طائر على الجسم الرقيق ..

وكان لهذا التدليك المستمر اثره فى بعث الدفء قليلا فى جسم

المولود .. ولكن الصدر ظل علي انطباقه ، دون ان تبدأ عملية التنفس

.. بل لقد ازداد لون الجسم اربدادا لحرمانه من الهواء

وبكل شجاعة وضعت « بولين » فمها على فم المولود الساكن ،

وراحت ترسل الى رئتيه انفاسا طويلة بطيئة .. وكلما أحست أنها

توشك أن تختنق ، توقفت قليلا لتستريح ، ثم عادت الى بعث الانفاس

في الرئتين الخاملتين ..

واستمرت « بولين » في عملية بعث الحياة الى جسم الطفل المولود نحو ساعة .. وكلما شعرت بالتعب ، استمدت من تصميمها قوة ، واستأنفت صراعها ضد الموت المتربص .. وأخيرا جدا ، شعرت باختلاجة دقيقة في شفتي المولود ، ثم اذ بحركة صغيرة تبدو على صدره .. ثم اذ ما يشبه الموجة الدقيقة تسرى في جسمه ، واذ هو في النهاية يطلق صيحة الحياة

ولما جاء الطبيب وعرف ما حدث ، قال لـ « بولين » :

— ان هذا الطفل يا « بولين » مدين لك بحياته .. لقد أخرجته أمه الى الحياة شبه ميت ، ولكنك انت التي بعثت في جسمه الحياة !



الفصل الرابع عشر

حب الحياة

كان الجو رهيبا طيلة شهر مايو ، ثم اقبل شهر يونيه بجو صحو
وايام مشمسة دافئة .. وكانت الاسبوع الثلاثة السابقة عليه ، مليئة
بالعواصف والرياح الهوجاء والامواج المكتسحة لكل شىء على الشواطىء
القريبة ، والقوارب الفارقة ، والقتلى من الناس .. وفجأة هدا كل
شىء ، وسطعت الشمس ، وصفت صفحة السماء ، وبدا البحر كأنه
بحيرة زرقاء ناعمة رقيقة

وبعد ظهر ذات يوم ، قررت « بولين » ان تدفع بالعجوز « شانتو »
على مقعده المتحرك الى الشرفة الكبيرة ليستمتع بهذا الجو الجميل
بجوار حفيده الصغير الراقد على « بطانية » .. وكان الصغير « بول » ابن
« لازار » ، قد بلغ شهره الثامن عشر ، وكانت « بولين » تعنى به وتدله
وترعاه كما تفعل عادة مع جده العجوز ..

وقالت للجد بصوت كله حنان :

— هل تحب الجلوس فى الشمس ياعمى ؟

— نعم .. نعم .. يخيل لى انى لم ارها منذ اجيال .. هل ستتركين

« بول » نائما فى موضعه هذا !

— أجل .. ان الهواء الطلق مفيد له جدا

وركعت بجوار الطفل .. وراحت تتأمل ذراعيه وساقيه العاريتين

ووجهه المتورد المتجه نحو صفحة السماء ، ثم قالت بابتهاج :

— انه مستغرق فى النوم .. لا بد انه تعب من الهددة .. أرجو

ياعمى الا تدع القطة تزاعجه

ثم حركت اصبعها للقطه مينو محذرة ، ولكن هذه كانت مشغولة

عنها وعن الطفل بتنظيف فرائها ..

وفيما كانت « بولين » تهم بالنهوض ، سمعت آهة توجع من العم
العجوز ، فقالت له في اشفاق :
- هل عاودتك الآلام .. ؟
فقال الرجل :

- عاودتنى ؟ .. وهل هي تتركنى لحظة ؟

وكان العجوز فى الواقع قد تصلب جسمه كله ، ولم يعد فيه شيء
يتحرك سوى عنقه ، وكان النقرس قد ترك اثاره الزمنية على يديه
وقدميه ، حتى بدت كلها معقدة ملتوية مليئة بالنتوءات الطباشيرية ،
عاجزة عن الحركة تماما . وكانت « بولين » هى التى تطعمه وتسقيه
بيديها بعد ان غدا عاجزا حتى عن رفع الطعام والشراب الى فمه !
اما الالم ، فلم يعد يتركه لحظة .. ولكن الالتهاب كان يزداد عند
أقل تغيير فى حرارة الجو ، وعند شربه أقل جرعة من الخمر ، أو تناوله
أصفر شريحة من اللحم ..

وقالت له « بولين » :

- هل تحب ان آتى لك بكوب من اللبن ؟ انه سينعشك ..

قال بين آهتين من التوجع :

- اللبن ؟ .. هل هو علاج جديد ؟ اننى افضل الالم على شرب

اللبن ..

فابتسمت « بولين » وربتت على وجهه ، ثم قالت :

- سأعود الآن الى المطبخ حتى لا يحترق الحساء ..

وقبل ان تعود ، سمعت « لويز » وهى تنادىها من نافذة غرفتها

بالطابق الثانى :

- بولين . اذا كان « لازار » عندك فأرسله ..

فردت « بولين » قائلة :

- لا .. انه لم يأت بعد ..

وثارَت أعصاب « لويز » وقالت :

- انا اعرف اننا لن نراه قبل حلول الليل ، هذا اذا فكر فى الحضور

الليلة .. لقد أمضى الليلة الماضية فى الخارج رغم انه وعد بالحضور

فورا . انه حين يذهب الى « كان » لا يستطيع انتزاع نفسه من

مياها .. !

فقلت « بولين » محاولة تهدئتها :

- لعل مشروع آلات السماد هو الذى عطله ، وربما يحضر الان فى مركبة الطبيب !

وكان « لازار » و « لويز » منذ قررا الإقامة فى بونفيل ، لا يكفان عن « المناقرة » التى قد تبلغ احيانا حد الخلافات العاصفة . وكانت « بولين » تقوم دائما بمهمة حمامة السلام ، فتهدىء من تأثرتهما ، وتصلح ما بينهما ، وتحاول جاهدة ان تجعل الحياة تمضى هادئة ليئة معهما ..

وعدا هذا كانت « لويز » تنفر من اعمال التدبير المنزلى ، فتركها كلها على عاتق « بولين » .. ومن ثم كانت حالة الفراغ التام التى تعيش فيها ، تثيرها وتوتر أعصابها ، وتجعلها تضخم كل خلاف يقع بينها وبين زوجها ..

وقالت لها « بولين » أخيرا :

- يحسن ان تصفى شعرك يا « لويز » وترتدى الملابس المناسبة لان الاب « هورتيير » يوشك أن يحضر ، واحب ان تجلسى معه حتى افرغ من اعداد الطعام

ولكن « لويز » قالت بنفس اللهجة الثائرة :

- كيف يغب « لازار » كل هذه المدة فى « كان » . لقد ارسل ابى الى خطابا يؤكد لى فيه أنه سيمنعه من تنفيذ مشروع آلات السماد حتى يحفظ لى البقية القليلة الباقية من ثروتى ..

وكان « لازار » فى الواقع قد بعثر الجانب الاكبر من ثروة زوجته « لويز » على مشروعين آخرين فاشلين . وقد حفزها ذلك على استثمار الباقي من ثروتها فى مشروع للتأمين لصالح الطفل « بول » بحيث يستطيع ان يحصل على مائة الف فرنك عندما يبلغ الحادية والعشرين من عمره

ولما اوشكت « لويز » ان تستطرد فى حديثها الغاضب ، قالت لها « بولين » لتغير مجرى هذا الحديث :

- هلمى يا عزيزتى « لويز » .. اهبطى سريعا ، فانى لا ادري ماذا حدث ل « فيرونىكا » ولا كيف تتركنى بمفردى فى مساء يوم سبت كهذا .. لست ادري لماذا تأخرت حتى الآن فى العودة من القرية ..

وكانت غيبة « فيرونیکا » لفزا حير الجميع .. فبعد أن أعدت الخضراوات للطهو ، ونظفت البطة ، وجهزت اللحم ، اذ بها تختفى بعد أن قالت انها ذاهبة الى القرية لامر ما ..

وقالت « لويز » فى دهشة :

– ألم تعد « فيرونیکا » بعد ؟

فأجابت « بولين » قائلة :

– لا .. هل أخبرك برأى فى سر غيبتها ؟ .. حسنا .. لقد دفعت فرنكين ثمنا للبطة التى اشترتها من بائعة جواله ، وأذكر أنى قلت لها انها تباع فى سوق البلدة بفرنك ونصف فقط ، وعندئذ أرسلت الى احدى نظراتها الساخطة ، وأكبر ظنى انها ذهبت الى سوق البلدة لتسأل عن ثمن بطة مماثلة ، ولتترى هل انا كاذبة أم صادقة !

وكانت « بولين » تضحك اثناء الحديث ، ولكن ضحكها لم يكن يخلو من الاحساس بالالم لان « فيرونیکا » عادت الى طبيعتها الاولى ، وأصبحت تعاملها بعداء ونفور ، ولا تكف عن الترحم على أيام مدام « شانتو » التى لن تعود ..

وقالت « لويز » ردا على حديث « بولين » :

– الحقيقة اننا لا ندرى ماذا دهى « فيرونیکا » .. لقد مضى عليها أسبوع الآن وهى متجهمة ، لا تطيق أن يحدثها أحد أو تتحدث الى احد . ولهذا فلا يستبعد ان ترتكب أى نوع من الحماقات

فهزت « بولين » كتفيها وقالت :

– انها فى الواقع مسكينة ، ولا بأس من أن ندعها ترضى بعض نزواتها بين الحين والآخر .. ولا شك أنها سوف تعود عاجلا أو آجلا .. والى أن يحدث هذا فلن نموت جوعا !

وهنا تململ الطفل على السجادة ، فأسرعت « بولين » اليه قائلة وهى تنحنى عليه برفق :

– ماذا بك يا حبيبى ؟ ..

وراقبتها « لويز » برهة قبل ان تختفى من النافذة ..

واقبل « لازار » أخيرا .. وبعد أن حيا والده وقبله ، صعد فورا الى غرفة زوجته حين سمع نداءها الفاضب عليه ، ولم يلبث الاب « هورتيير » أن حضر ، ثم تبعه الدكتور « كازينوف » كالمعتاد فى مساء

يوم السبت من كل أسبوع .. ولما نظر الى العجوز « شانتو »
فاحصا ، قال له :

– هل تشعر بألم شديد يا «شانتو» ؟

– آه .. طبعاً .. طبعاً .. لقد ظننت أن الشمس بعد الظهر
ستفيدنى ، ولكننى أشعر الآن بالتهاب شديد فى مفصل قدمى ..
وفحص الطبيب أصابع المريض العجوز ، بينما قال الاب «هورتير»
محاولاً المزاح :

– ان أصابعك يا عزيزى «شانتو» لم تعد صالحة للعب الشطرنج

معى ..

وقال الطبيب :

– يجب أن تكون شديد الحذر فيما تأكل هذه الايام يا «شانتو» ..

ان مفصل ذراعك ينذر بالسوء ..

فقال العجوز متوجعاً :

– كيف اكون أكثر حذراً و «بولين» هى التى تطعمنى وتسقينى

حسب تعليماتك

فابتسمت «بولين» وقالت :

– نعم .. نعم .. ولكنك أكلت أمس أكثر مما ينبغى .. وهذه

غلطتى ، لاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من اعطائك ما اشتهيت أن تأكله
وتشربه

وتوقفت برهة ، ثم أردفت تقول وكأنما تذكرت شيئاً :

– وبهذه المناسبة ، ألم يقابل أحد منكما «فيرونیکا» ؟

وبعد أن أخبرت الجميع بأمر اختفاء «فيرونیکا» الغامض، أردفت

قائلة :

– لسوف أترككم الآن ، لانى المسئولة عن المطبخ حتى تعود

هذه الحمقاء ، واذا تركت الحساء حتى يحترق أو قدمت البطة قليلة

النضج ، فسوف اتلقى انذاراً بالفصل من عمى فوراً !

وأرسل الاب « هورتير » ضحكة عالية ، وابتسم الدكتور

« كازينوف » ؟ ثم اذ بأصوات المشادة الكلامية تعلو فى الطابق الثانى ،

بحيث كان فى مقدور الجالسين فى الطابق الارضى – بل و «بولين»

فى المطبخ – ان يسمعوا هذه الاصوات الحادة المنطلقة بالعبارات

القاسية ..

وحاولت «بولين» أن تخفى هذه الاصوات بصلصلة الاواني والاعوية التي أخذت تضعها على مائدة العشاء .. ولكن ضجيج الشجار ظل يزداد ، وظل يملأ قلب «بولين» بالآلم .. ومن ثم صعدت اليهما لتقوم بواجبها ، ولتؤدى رسالتها التي تدور حول نشر السعادة على الجميع ..

وقالت لهما وهي تدخل الغرفة :

- يا عزيزى .. قد تقولان ان هذا ليس من شأنى ، ولكن أصواتكما عالية جدا ، وعباراتكما قاسية جدا .. وليس هناك ما يدعو لان تشقيا حياتكما على هذا النحو ، وتزعجا جميع المقيمين معكما فى البيت ..

ثم تقدمت وأغلقت النافذة التي كانت الاصوات تنتقل عبرها ، هذا بينما كان الزوجان يستطردان فى شجارهما ، وكأنما لم يسمعا كلمة واحدة من حديثها .. !

ووقفت برهة ساكنة وهي تشعر بنوازع خفية من الآلم منذ أن وجدت نفسها فى غرفتهما هذه .. فى مخدعهما الذى يضم جسديهما ليلة بعد ليلة فى فراش واحد ، وتحت غطاء واحد ..

ونظرت الى الستائر الحريرية الخضراء والاثاث الوردى ، والاعطية المخملية ، وشممت عطر الهليوتروب الفواح فى جميع أنحاء الغرفة ، وتأملت أدوات الزينة فوق منضدتها ، وبعض الاشياء الصغيرة التي لا يمكن أن توجد الا فى غرفة زوجين ..

وسرت فى بدنها رعدة .. نفس رعدة الفيرة القديمة التي اعتادت أن تسرى فى جسدها كلما وقعت عينها على ما يذكرها بمايين «لازار» و «لويز» من علاقات جنسية مشروعة !

ولكنها تمالكت نفسها بسرعة ، وقالت :

- كيف يعمل كل منكما على تعذيب الآخر هكذا؟! .. الا تعقلان ؟ ..

وصاحت «لويز» :

- لقد فاض بى الامر .. أنتعقدان أنه سيعترف بخطئه . لا .. انه يعتقد أن الناس جميعا مخطئون وهو فقط على صواب . لقد انقض على بأقذع العبارات لانى عاتبته على غيابه فى «كان» ، واتهمنى

بأنى أفسدت حياته وحرمته من كل متعة حقيقية فيها ، ولهذا فهو يهددنى بالهرب الى أمريكا الجنوبية ..
وقاطعها «لازار» قائلاً :

– لو أنك عاتبتنى هكذا برفق ، لاعتذرت اليك وقبلتك وانتهى الامر .. ولكنك أخذت تتهميننى بأنى أفسدت حياتك، وملاؤها بالشقاء، وهددتنى بالقاء نفسك فى البحر اذا استمر الحال بيننا على هذا المنوال ..

ثم اشتبك الاثنان مرة أخرى فى مشادة عنيفة ، وأخذ كل منهما يتهم الآخر بافساد حياته ، ويلعن اليوم الذى قبل فيه الزواج من الآخر ، وكانت «لويز» رغم رقتها الظاهرية ، لاتتردد فى القذف بأقذع العبارات الموجعة ، وكان «لازار» يستمد من مثل هذه المشادات لونا من الاثارة والانفعال اللذين يخرجانها من سأمه الى حين

وأخذت «بولين» تنصت اليهما برهة ، وهى تشعر بالآلم من أجلهما ، وبالعجز عن فهم نوع حبهما الذى جعل كلا منهما يتزوج الآخر .. فاذا كان قد تبادل الحب والرغبة فى الزواج ، فلماذا اذن بتقاذفان بأقسى العبارات على هذا النحو ، ولماذا ينتهزان كل فرصة لشحن حياتهما بالآلم والعذاب ؟

وازداد احساسها هى بالآلم لانها كانت تعتبر نفسها المسئولة الوحيدة عن زواجهما .. كانت ترى ان مسئوليتها هذه تحتم عليها أن ترعى هذا الزواج ، وان تشعر بأن تضحياتها بنفسها لم تذهب سدى .. !

وقالت «لويز» لـ «لازار» :

– اننى لا ألومك على بعثتك لثروتى فى مشروعات خيالية فاشلة ..

فصاح «لازار» :

– هذا آخر ما كنت أتوقع أن أسمعه .. وما ذنبى أنا اذا كنت قد وقعت ضحية للخداع والاحتيال !

– ان الاحمق فقط هو الذى يقع ضحية للاحتيال والخداع .. وعلى كل حال فقد هبطت مستوى معيشتنا حتى لم نعد قادرين على الحياة الا فى هذه القرية المنعزلة عن العالم .. وكل ما أخشاه ان يأتى اليوم

الذى لا نجد فيه القوت الضرورى .. !

وقال « لازار » متهكما :

– هذا هو نفس حديث أبيك معى أمس .. أستمرى .. ومن يدري ، فلعلك كتبت اليه رسالة تطالبينه فيها بالعمل على عرقلة مشروع آلات السماد ، وهكذا تفسدين أعمالى دون أن أدري .. أما عن الإقامة هنا ، فهذا أمر لا مندوحة عنه ..
فهتفت قائلة :

– هذا يعنى انى سأدفن شبابى كله فى هذا الجحر، لا .. مستحيل، اننى لن أفعل هذا من أجلك أو من أجل ابنا .. اننى سأنتظر قليلا، ثم أرى ماذا ستفعل .. فاما أن تغير مجرى حياتك هذا أو ..

وهنا تدخلت « بولين » وراحت تهديء من تأثرتهما ، وظلت بهما حتى جعلت كلا منهما يقبل الآخر . وعندئذ قالت ضاحكة :

– اتريان ؟ .. أليس هذا أفضل من « المناقرة » والشجار . والآن يجب أن أعود فورا الى المطبخ ، والا فلن يتناول أحد عشاءه الليلة ووقفت على الباب برهة قبل أن تغلقه بسرعة ، وتطوى عن ناظرها جو العلاقة الزوجية ، ومنظر السرير ، والملابس المتناثرة ، وشذى الهليوتروب الذى أحست فى تلك اللحظة أنه سيساعدها على التقريب بين الزوجين .. !

وهناك – فى المطبخ – أخذت « بولين » تغنى وهى تقلب الحساء على النار ، وتضع البطة فى الفرن ، وكانت فى الواقع تشعر بالسعادة الفامرة وهى تقوم بعملها فى المطبخ ، وتجهز الطعام للجميع ..

وتذكرت الطفل الصغير الذى تركته فى الشرفة ، فاندفعت من المطبخ لتطمئن عليه .. وهناك وجدت « لازار » جالسا بجواره ، فهتفت قائلة :

– ما هذا ؟ .. كيف تركت « لويز » بمثل هذه السرعة ؟ .. أرجو الا تكونا قد اختلفتما مرة أخرى .. !

فأوما « لازار » برأسه وقال :

– ان الحياة معها أمست مستحيلة .. ولكن اطمئنى يا « بولين » اننا لم نختلف بعد ان تركتنا ، وسوف تأتى لتشارك معنا فى تناول العشاء .. ولكن ..

وهز كتفيه وأمسك عن الاستطراد ..
ولما عاد بالطفل «بول» الى حيث كان يجلس جده في مقعده المتحرك
بالصالة ، أخذ يدربانه على المشي بين أبيه وجده ، وأخذت ضحكات
الطفل الصغير تملأ قلبيهما بالسعادة والرضا . ولما تعب ، تلفت
« لازار » حوله وقال كأنما تذكر شيئاً :

– أين الدكتور « كازينوف » والاب «هورتير» ؟

فقال الوالد العجوز :

– لقد صحب الاب « هورتير » الدكتور ليريه شجرة البرقوق
التي أثمرت في حديقتنا الخلفية ..

فنهض «لازار» وقال :

– ولسوف أمضى لاستدعائهما ..

وما كاد يتقدم خطوة حتى رأى «هورتير» مقبلاً في فزع وهو
يهتف :

– « فيرونيكا » .. « فيرونيكا » .. لقد عثرنا عليها ..
يا للمسكينة ..

فقال « لازار » بجزع :

– أين .. ؟

– في الحديقة الخلفية ..

– وماذا ألم بها .. ؟!

– وجدناها معلقة من عنقها في شجرة ..

وندت عن الجميع صيحة فزع ورعب ، وامتعت الوجوه وكأنما
أحس كل منهم بأن طيف الموت يمر بالصالة ..

وتمت «بولين» قائلة ، وهي تحبس دموعها بجهد :

– ولكن لماذا؟! .. لم يكن هناك أى سبب يدفعها الى الانتحار ..

لقد بدأت هي في اعداد الطعام قبل أن تختفى ، ثم أخذت أتمه بعدها ..
يا الهى أرجو ألا أكون أنا السبب عندما ذكرت لها الفرق بين ثمن
البطتين !

وأقبل الدكتور « كازينوف » الذى كان قد انفق الربع ساعة
الآخيرة فى محاولة اسعافها بمساعدة سائق مركبته العجوز «مارتن» ..

ولما رأى نظرات التساؤل ، قال :

– اننى لا أعرف لماذا فعلت هذا .. والواقع ان الانسان يشعر
بأكبر الحيرة أمام تصرفات بعض الناس ..
وقالت «بولين» وهى تخفى وجهها بين يديها :
– ولكن .. كيف ؟ .. كيف ؟ .
– شنتت نفسها بأربطة ميدعة المطبخ .. والواضح أنها فعلت
هذا فى لحظة يأس عابرة ..
وخيم الصمت الثقيل على الجميع .. وفجأة قال العجوز
« شانتو » بصوت الثائر المتمرد الذى ساءه أن يحرم فى اللحظة
الآخيرة من وجبة العشاء الشهى :
– اننى لا أدرى كيف تبلغ الحماسة ببعض الناس حد الرغبة
فى التخلص من هذه الحياة الحلوة !
« تهت »



اشترك في روايات الهلال

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء روايات الهلال

السيد نخلة سكاف	اللاذقية
السيد هاشم بن علي نحاس ص.ب ٤٩٣	جدة
السيد مؤيد احمد المؤيد صندوق البريد رقم ٢١	البحرين
Sr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Março, 994, Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRAZIL	البرازيل
Messrs. Allie Mustapha & Sons P. O. Box 410 Freetown, Sierra Leone	سيراليون
Ahmed Bin Mohammad Bin Samit Almaktab Attijari Asshargi, P. O. Box 2205 SINGAPORE	سنغافورة
The Arabic Publications Distributer Bureau, 7, Bishopthorpe Road London S.E. 26, ENGLAND	انجلترا
Mr. Mohamed Said Mansour Atlas Library Company, 126 Nnamdi Azikiwe St. Lagos, Nigerta.	نيجيريا

زوايا الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

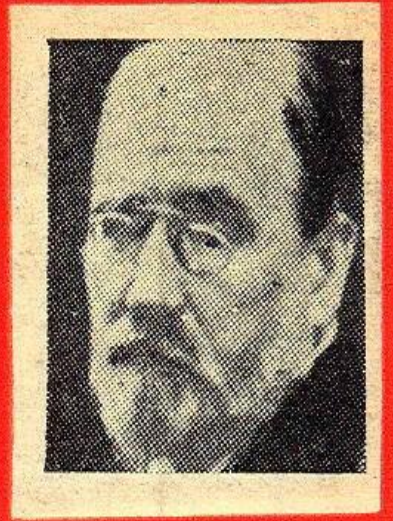
هذه الرواية

يعالج « اميل زولا » في هذه الرواية الانسانية الرائعة .. Zest for life موضوعا من أهم الموضوعات وأكثرها تشويقا للنفس البشرية .. انه موضوع السعادة الانسانية والرغبة القوية في الحياة بكل ما فيها من آلام وآمال ، وحرمان واستمتاع ، وحب ونفور ان ((بولين)) بطلة الرواية ، تذهب - وهي طفلة يتيممة تملك ثروة ضخمة - للاقامة مع أسرة عمها العجوز التي أخنى عليها الدهر . وقد أشاعت الفتاة جوا من المرح والرخاء في محيط الاسرة ، ولكن الامور تتطور والرغبات تتصارع ، وتطل نوازع الطمع في ثروة الفتاة اليتيمية من نفوس بعض أفراد الاسرة .. وتتوالى أحداث الرواية - المنتزعة من صميم الحياة - في صور مثيرة رائعة ..

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامه



المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية في الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من أشهر الروائيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التي ترجمناها في روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التي ترجمناها عام ١٩٦١